بلاغة تطبيقية

دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص

تأليف

الدكتور

بسيوني عبد الفتاح فيود

أستاذ البلاغة والنقد ~~المساعد~~

بكلية اللغة العربية بالقاهرة

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ — ١٩٩١ م

مطبعة الحسين الإسلامية

٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر

تليفون ٩١٩٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير ، ارسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وآتاه جوامع الكلم ، فجاهد - ﷺ - فى سبيل تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، ونصح الأمة ، والدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ... أما بعد

فدارس البلاغة فى حاجة الى أن ينظر فى التعبيرات الجيدة ، والأساليب الراقية ، ويتأمل هذه التعبيرات ، وتلك الأساليب ، ويصل بل ويدرك مواطن الجمال بها ، فينمو بذلك ذوقه ، وترقى أحاسيسه وتسمو مشاعره ..

ولو وقف الدارس عند حد القاعدة والضوابط البلاغية ، ولم يتجاوزها الى النصوص الرفيعة ، ليتعرف من خلال هذه النصوص على مسائل البلاغة ، لجف ذوقه ، وتبلدت أحاسيسه ، وانحطت مشاعره ...

ولذا رأينا أن نحرك الدارس البلاغى ، ونوجهه نحو النصوص السامية ، والتعبيرات الراقية ، ليتعرف على مسائل البلاغة بها ، ووضعنا له فى هذا المؤلف :

١ - جملة من الآيات القرآنية الكريمة .

٢ - عددا من أحاديث النبى ﷺ .

٣ - نصوصا من الشعر العربى الجيد .

وغايتنا من ـهذا المؤلف أن يقف الدارس البـلاغى على مـا فى هـذه النصوص من المزايا والأسرار والمسـائل البـلاغية ، فهو بمثـابة تطبيقات لمـا يدرسـه الدارس من مقررات بلاغيـة ..

ومـا من ريب فى أن الدارس عنـدما يقف على المسائل والأسرار والمزايا البلاغيـة من خـلال هذه النصوص ، فسيكون لهـا أثر ووقـع فى نفسـه ، وتقر بذلك الضوابط البلاغية وتترسـخ فى أعماق الأنفس ..

فالله عـز وجـل نسأل أن يحقق هـذا المؤلف غايتـه المرجـوة ، وأن ينتفع به دارسـو العـلم ومحبو المعـرفة ، وأن يجـزينا به خـير الجـزاء ، ويهـدى إلى سـواء السبيل ، إنه خير مسئول ، وهو نعـم المولى ونعم النصير ، وصـلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصـحبه وسـلم ..

المـؤلف

بسيونى عبد الفتاح فيـود

~~الأسـتاذ المساعد فى جامعة الأزهـر~~

أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

القسم الأول

من هـــدى القـــرآن الكريم

١ ـ من أول ســورة (البقــرة) الى قــوله تعــالى : « **ولو شــاء الله لذهب بسمعهم وأبصــارهم إن الله على كل شيء قدير** » ٠

الآيات : ١ ـ ٢٠

٢ ـ من قوله تعــالى فى ســورة (آل عمران) : « **يأيهــا الذين آمنوا لا تأكلوا الــربا أضعافا مضــاعفة** » إلى قوله تعالى : « **ومن يرد ثــواب الدنيــا نؤته منهــا ومن يرد ثــواب الآخــرة نؤته منهـــا وسنجــزى الشــاكرين** » ٠

الآيات : ١٣٠ ـ ١٤٥ ٠

٣ ـ من أول ســورة (لقمــان) إلى قوله تعــالى : « **هــذا خلــق الله فأورنى مــاذا خلــق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** »

الآيات : ١ ـ ١١

١

قال تعالى : « آلم • ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون • أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون • إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون • ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم • ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين • يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون • فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون • وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون • ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون • وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون • وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون • الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون • أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين • مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون • صم بكم عمى فهم لا يرجعون • أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين •

يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير »(١) .

تتناول هذه الآيات الكريمة بيان صفات المتقين ، الذين آمنوا وأخلصوا دينهم لله ، وما أعد لهم من جزاء ، وقد جاء الحديث عن المتقين ، وتجلية صفاتهم ، وبيان جزائهم ، عقب ذكر القرآن الكريم والإشارة إلى كماله ، وأنه من عند الله لا ريب فيه .

وبعد قصة المؤمنين تأتى قصة الكافرين ، فتبرز الآيات أنهم أصروا على الكفر والعناد والمكابرة ، وأنه قد ختم على قلوبهم وسمعهم وجعل الله على أبصارهم غشاوة ، فأنى لهم أن يؤمنوا ، وتختتم قصتهم بأن الله قد أعد لهم عذابا عظيما « **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور** »(٢) .

ثم تأتى قصة المنافقين فتبرز الآيات الكريمة أحوالهم وتجلى مواقفهم المريبة ، وصفاتهم التى جبلوا عليها ، وتذبذبهم « **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** »(٣) وتبين بوار تجارتهم ، وتضرب الأمثال التى توضح أحوالهم ، وتعاميهم عن الحق ، أما جزاؤهم فهو العذاب الأليم ، لأن الله تعالى محيط بهم ، ويستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ..

والذى يعنينا فى هذه الآيات الكريمة ، ونريد إظهاره وبيانه هو الجانب البلاغى ، نريد تجليته وإيضاحه ، والكشف عن الأسرار والمزايا التى تكمن وراء التراكيب فى الآيات الكريمة ، ونضع يد

---

(١) سورة البقرة : ١ ـ ٢٠ .
(٢) سبأ : ١٧ .
(٣) النساء : ١٤٣ .

القـارىء على تلك المزايا ، ونوجـه فكره وعقله نحوها ، فتتربى لديه ملكة التـذوق والتـأمل وحسن الادراك ..

بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى : (ألم) وقـد قال بعض العلمـاء فى شأن هذه الفواتح : « لكل كتاب سر ، وسر القـرآن فواتحه »(٤) .

وذكر الزمخشرى أن هذه الفواتح أسـماء لحروف المعجم ، وأنهـا من قبيل المعـربة ، وسكون أعجـازها عند الهجاء لأجل الوقف ، وعلل افتتاح السـور بها بالإشـعار بأن القـرآن الكريم ليس إلا كلمات عربية معروة التراكيب ، من مسميات هـذه الالفاظ ، فهى كالإيقـاظ وقـرع العصـا لمـن تحدوا بالقرآن ، وبغـرابة نظمه ، وكالتحريك للنظر فى أن هـذا المتـلو عليهم وقد عجـزوا عنه جميعا ، كلام منظـوم ، من عين مـا ينظمون منـه كلامهم(٥) .

وعندما نتأمل هـذه الفواتح فى القـرآن الكريم نجـد أن ما ورد بهـا أربعـة عشر حـرفا من حـروف الهجاء ، فهى نصف حروف الهجاء وقد اشتملت على أنصـاف أجناسها ، ففيها نصـف الحروف المهموسة ، ونصف المجهـورة ونصف الشـديدة ، ونصف الرخـوة ، الى آخـر هذه الأجنـاس ، وباستقراء كلم القـرآن وتراكيبه ، وجـد أن الحروف التى لم ترد فى فواتح سـوره قليلة بالنسبة لتلك التى وردت بهـا ، ونحن نعـلم أن معظم الشىء وأكثره ينزل منزلة كله ، فكان الله عز وجل قد عدد على العرب الألفـاظ التى منها تراكيب كلامهم ، وذلك لتبكيتهم ، وإلزام الحجة اياهم ، فسبحان من لطف كتابه ، ودقت في كل شىء حكمته(٦) .

وخلاصـة القول في هـذه الفواتح ، أن ابتـداء السور وتصديرها

---

(٤) تفسير الطبرى ٢٠٩/١ .
(٥) ارجع الى الكشاف ٨٣/١ ، ٩٣ ، ٩٦ .
(٦) انظر الكشاف ١٠٠/١ ـ ١٠٣ .

بها ، يجذب أنظار المعرضين عن القرآن اليه ، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة الفاظ غير مالوفة فى تخاطبهم ، ينتبهون إلى ما يلقى إليهم ، ويتلى عليهم من آيات بينات ٠٠

كما أن فى هذه الحروف التى استخدمت فى الفواتيح تنبيها على إعجاز القرآن الكريم ، فانه منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، فعندما يعجزون عن الاتيان بمثله ، وهم أهل البيان ، وأرباب الفصاحة فإن ذلك يعد أعظم برهان على إعجازه ٠٠

وفى قوله عز وجل : « **ذلك الكتاب** » استخدم اسم الاشارة الموضوع للبعيد (ذلك) للدلالة على التعظيم وبعد المنزلة ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، والاشارة الى القرآن الكريم ، وأسلوب (ذلك الكتاب) أسلوب قصر طريقه تعريف المسند بأل التى للجنس ، كما يقال : ذلك الرجل ، قصرا لصفة (الشجاعة والرجولية) على اسم الاشارة ، أى : على المشار اليه ، اذ لا يخفى عليك أن المقصور فى هذا الطريق هو المقترن بأل ، والمقصور عليه هو الخالى منها ، والمعنى : ذلك هو الكتاب الكامل ، فهو قصر للكتاب على (ذلك) المشار به الى القرآن ، أى : قصر لصفة الكمال على القرآن لا تتعداه الى غيره من الكتب ، قالوا : الحصر إما على وجه الحقيقة ، فالقرآن هو الكتاب الكامل دون غيره ، وإما على وجه المبالغة لا حقيقة ، وهذا ليس بشىء ٠٠

فالأولى أن الكمال مقصور على القرآن قصرا حقيقيا ، وهذا لا يقدح فى كتب الله الأخرى ، فيقال بأنها ناقصة ، لأن هذا النقصان انما هو بالنسبة للقرآن ، فما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص(٧)٠

---

(٧) انظر الكشاف ١/١١١ ٠

وجملة (ذلك الكتـاب) جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، أو متعلقة بمـا قبلها (آلم) خبر له ، والأولى جعلهـا جملة مستقلة ، مبينة لمـا قبلهـا ، ويكون قوله : (آلـم) خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : هذه آلم ، تنبيهـا للاعجاز ، ولفت الأنظار الى القرآن كما بينا ..

وقوله تعـالى : (**لا ريب فيـه**) نفى للريب عن القرآن ، وإثبـات أنه حق وصـدق ، لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعـون ، ولم يقدم الظـرف (فيـه) على الريب ، كما قدم فى قوله تعالى : « **لا فيهـا غـول ولا هم عنهـا ينزفـون** »(٨) لأنه لم يقصـد الى الحصر ، إذ تقـديم الظرف فى سـورة الصافات افاد الحصر ، أى : نفى الغـول عن خمـر الجنـة وإثباته لخمور الدنيا ، فخمـور الدنيـا تغتـال العقول ، وخمر الجنـة تخلو من هـذا ، ولذا قـدم الظـرف (لا فيها غـول) لافادة الحصر ..

أمـا نفى الريب عن القـرآن فـلم يقصد فيـه إثبات ريب للكتب الأخرى ، بل قصـد الى تنزيه القـرآن عن الريب والشـك دون تعريض بغيره ، ولو قيـل : لا فيـه ريب ، لأثبت ذلك أن كتب الله الأخرى فيها ريب ، وحاشـا لكتب الله تعـالى أن يكون فيها ريب .

وجعل (فيـه) خبرا للريب هو المشهور ، ويصح جعلها خـبرا مقـدما لقوله تعالى (هـدى) وعندئذ يقـدر خبر محـذوف للريب ، ويكون المعنى : لا ريب فيـه . فيـه هـدى للمتقين ، وعلى المشهور تكون (هـدى) خبرا حـذف مبتدؤه ، والتقـدير : لا ريب فيه هو هـدى للمتقين ، وحـذف المبتدأ ينبىء بعظمة الهداية ، وكمالها ، كما يدل على ذلك تنكير (هـدى) ومجيئه مصـدرا فلم يقـل : هـاد ، وإنما قال (هـدى) .

---

(٨) الصافات : ٤٧ .

ومعنى كونه هدى للمتقين ، والمتقون مهتدون ، أن فيه زيادة هدى لهم ، كما يقال للعزيز : أعزك الله ، وللكريم : أكرمك الله ، أى : زادك عزا وكرامة ، يراد بذلك طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيهما ، واستدامته لهما .

أو أن المراد بالمتقين : الضالون الذين شارفوا على الهدى ، كما فى قول النبى - ﷺ - : « من قتل قتيلا فله سلبه » فقد سمى المشارف للقتل قتيلا ، ومنه قوله تعالى : « **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** »(٩) أى : صائرا الى الفجور والكفر ، والمعى عندئذ : هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال ، ففى المتقين على هذا المعنى مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيئول اليه أمر الضالين .

ولعل فى العدول الى المجاز تحقيقا لفائدة جليلة وغرض عظيم ، وهو تصدير السورة الكريمة بالتقوى ، وذكر أولياء الله والمرتضين من عباده ..

وقد فصل بين هذه الجمل : « **الم ذلك الكتاب ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين** » لكمال الاتصال ، فهى جمل يؤكد بعضها بعضا ، ويأخذ بعضها بعنق بعض ، لتنزيه الكتاب العزيز ، وتأكيد كماله ، وبلوغه الغاية فى الهداية .

يقول صاحب الكشاف : « والذى هو أرسخ عرفا فى البلاغة أن يقال إن قوله « الم » جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و « ذلك الكتاب » جملة ثانية ، و « لاريب فيه » ثالثة ، و « هدى للمتقين » رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقة هكذا ، من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية ، آخذا

(٩) نوح : ٢٧ .

بغضها بعنق بعض ... بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكان تقريرا لجهة التحدى ، وشدا من أعضاده ، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة ، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله ، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . »(١٠) .

وقوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » بيان للمتقين وتجلية لهم ، وقد فصل عما قبله لشبه كمال الاتصال المسمى بالاستئناف البيانى ، لأنه بمثابة جواب لسؤال تضمنته الجملة السابقة ، وكأن سائلا سأل ، من هم هؤلاء المتقون الذين جعل القرآن لهم هدى ؟ فجاء الجواب هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة(١١) .

والجار والمجرور « بالغيب » إما متعلق بالإيمان صلة له ، أو متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير « يؤمنون » ، والمعنى : يؤمنون متلبسين بالغيب ، حالة كونهم غائبين عن المؤمن به ، كما فى قوله تعالى : « الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون »(١٢)

---

(١٠) الكشاف ١/١٢١ ، ١٢٢ .
(١١) هذا وقد جعل بعضهم « الذين » صفة للمتقين موصولا به ، أو منصوبا على المدح ، والتقدير : أعنى الذين يؤمنون ، وما ذكرناه على جعل « الذين » خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : هم الذين يؤمنون ، والجملة عليه بيان لما قبلها كما أوضحنا ، ويصح أن يكون « الذين » مبتدأ خبره « أولئك على هدى .. » .
(١٢) الأنبياء : ٤٩ .

وقوله تعالى : « **ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب** »(١٣) . فإن جعل صلة للإيمان : فمعنى الغيب : الغائب الذى هو ضد الشهادة ، كالايمان بالله وصفاته وأنبيائه ، والبعث والنشور والحساب والوعد والوعيد ، وغير ذلك مما غيب عنا وأمرنا بالإيمان به ..

وإن جعل حالا ، كان الغيب بمعنى الغيبة والخفاء ، أى : يؤمنون حال الغيبة ، كما يؤمنون فى الحضور ، فايمانهم ايمان صادق ، وليس كايمان الذين نافقوا ..

وقوله تعالى : « **ويقيمون الصلاة** » إقامة الصلاة تحتمل أربعة معان :

١ ـ تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها ، من قولهم أقام العود ، إذا قومه أى : سواه وأزال عوجه ...

٢ ـ الدوام والمحافظة عليها ، كما فى قوله تعالى : « **الذين هم على صلاتهم دائمون ... والذين هم على صلاتهم يحافظون** »(١٤) من قامت السوق وأقامها اذا نفقت ، فتتوجه اليها الرغبات ، ويتنافس فيها المحصلون . وعلى هذين المعنيين ففى « يقيمون » استعارة تبعية ، حيث استعيرت الإقامة من تسوية الأجسام ، لتسوية المعانى ، كتعديل أركان الصلاة وحفظها من وقوع زيغ فى فرائضها ، على ما هو حقها ، ثم اشتق من الإقامة « يقيم » بمعنى : يعدل أركان الصلاة ...

---

(١٣) يوسف : ٥٢ .
(١٤) المعارج : ٢٣ ، ٣٤ .

ساقط من الأصل

ساقط من الأصل

ساقط من الأصل

ساقط من الأصل

ولا يخفى علينا أن « الآخرة » صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : وبالدار الآخرة هم يوقنون ، قال تعالى : « **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا** »(١٧) وهى من الصفات الغالبة ، وكذلك الدنيا .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ..

التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد « أولئك » يدل على التعظيم وعلو المكانة ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، وجملة « أولئك على هدى » إما خبر للذين يؤمنون بالغيب ، إن جعل « الذين يؤمنون بالغيب » مبتدأ ، أو خبر للذين يؤمنون بما أنزل اليك ، على سبيل التعريض بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا وهم ظانون أنهم على الهدى ، وطامعون فى نيل الفلاح ..

ويصح أن يكون « الذين يؤمنون بالغيب » تابعا للمتقين - كما بينا - وأن يكون « أولئك على هدى » مستانفا استئنافا بيانيا ، كانه قيل مابال المستقلين بهذه الصفات هل اختصوا بالهدى والفلاح ؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا ، وبالفلاح آجلا ..

واسم الإشارة « أولئك » قد حسن موقعه هنا ولطف ، إذ يؤذن بأن ما يرد عقبه من جزاء ، فالمذكورون قبله أهل له ، وجديرون باكتسابه ، من أجل الخصال التى عددت لهم ، وهذا شأن اسم الإشارة عندما يرد بعد تعديد صفات وخصال ، فيؤذن بأن المشار اليه جدير باستحقاق مايأتى عقيبه من جزاء ، من أجل تلك الخصال المتقدمة ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة « المؤمنون »

---

(١٧) القصص : ٨٣ .

« **أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** »(١٨) وقوله عز وجل فى سورة آل عمران : « **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات ..** »(١٩) ، وعد الى السورتين وتأمل ما عدد من صفات ، وما عقب به من جزاء ليتضح لك صدق ما قلفاه ..

وفى قوله تعالى « على هدى من ربهم » استعارة تبعية فى الحرف « على » حيث شبه تمسك المتقين بالهدى وتمكنهم منه باستعلاء الراكب على ما يركبه بجامع التمكن والاستقرار ، ثم استعير له الحرف الموضوع للاستعلاء ، كما فى قوله تعالى : « **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** »(٢٠) حيث شبه تمكن الجذع من المصلوب باستقرار المظروف فى الظرف بجامع الثبات ، ثم استعير له الحرف الموضوع للظرفية ..

واستخدام الحرف « على » فى التمثيل لتمكن المتقين من الهدى واستقرارهم عليه ، يشعر بتكريمهم وتعظيمهم ، حيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشىء وركبه ، سموا ورفعة ..

وتأمل قوله تعالى : « **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** »(٢١) فستجد عند التأمل أن المهتدين قد صوروا تصوير تكريم وتعظيم ، فهم على هدى قد اعتلوه ، وتلك مكانة سامية ، أما الضالون فهم منغمسون فى الضلال ، يتخبطون فيه ، وتلك منزلة هابطة ، ومكانة ساقطة ، تمثل هبوط الضالين ، وانغماسهم فى الضلال المبين ، تحقيرا لهم وحطا من شأنهم ..

---

(١٨) المؤمنون : ١٠ ، ١١ .
(١٩) آل عمران : ١٣٦ .
(٢٠) طه : ٧١ .
(٢١) سبأ : ٢٤ .

وتنكيـر « هـدى » للدلالة على التعظيم ، وبيـان أنـه ضـرب مبهـم لا يبـلغ كنهـه ، ولا يحـاط بـه ، ولذلك وصـف بقوله « من ربهـم » مبالغـة فى تعظيمه وإبهـامه ٠٠

وقـوله تعـالى : « وأولئك هـم المفلحون » أعيـد اسم الاشارة « أولئك » فـلم يقـل : وهـم المفلحون مثـلا للدلالة على اختصاصهم بكـل واحـدة من الصفتين « الهـدى » و « الفـلاح » على حـدة ، لتكون كـل منهمـا مميزة لهـم عمـن عداهم ، وللإشعار بأن الصـفة الواحـدة منهمـا لـو انفردت لكفت مميـزة لهـم على حيالها ٠٠

وتـدل الواو فى قـوله : « وأولئك » عـلى اختـلاف الخبرين وتميزهما ، وذلك عكس قوله تعـالى فى شـان الكفـار « **أولئك كالأنعام بـل هـم أضل أولئك هـم الغافلون** »(٢٢) فـان الخبرين هنا متفقان ، اذ التسجيل عليهـم بالغفـلة ، وتشبيههم بالبهـائم شىء واحد ، فالجملة الثانية مقـررة لمـا فى الأولى ، ومؤكـدة لمعناها ، ولـذا فصل بينهمـا لكمـال الاتصـال ٠

وأسلوب « أولئك هـم المفلحون » أسلوب قصـر طريقة تعـريف الخبـر بـال التى للجنس ، فالفـلاح مقصور عليهم ، لا يتعداهم الى غيرهم ، قصـر صـفة على موصوف ، و « هـم » ضمير فصل مؤكـد للاختصـاص ٠٠

ولا يخفى عليـك أن الوصل بين جملتى : (أولئـك علي هـدك من ربهم وأولئـك هم المفلحون) للتوسط بين الكمالين مع عـدم المانع ، حيث اتفقتـا فى الخبرية لفظا ومعنى ، ووجـدت المناسبة المصححـة للوصـل بينهما ٠

---

(٢٢) الأعراف : ١٧٩ ٠

وقد أبرزت الآية الكريمة اختصاص المتقين بنيل مالا يناله أحد ، وأكدت ذلك بطرق شتى ، ووسائل مختلفة ، التعبير باسم الإشارة (أولئك) وتكراره ، وتعريف المفلحين بأل ، وتوسط ضمير الفصل (هم) بينه وبين (أولئك) والغرض من ذلك تجلية منزلتهم وبيان مراتبهم ، والتبصير بها ، والترغيب والحث على العمل لنيل هذه المراتب السامية .

(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)
وبعد ذكر قصة المتقين ، وتجلية خصالهم ، وبيان أن الكتاب هدى لهم خاصة ، عقب بذكر الكفار ، وقد قطعت قصة الكفار عن قصة المتقين فلم تعطف عليها ، لأن بين القصتين تباينا فى الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعطف ، لأن الأولى مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين ، والثانية مسوقة لبيان صفات الكفار ..

ونجد أن الخبر عن الكفار قد جاء مؤكدا بإن : (إن الذين كفروا) ويرجع هذا التاكيد الى أن المخاطب وهو النبى - ﷺ - كان حريصا على هدايتهم ، متفانيا فى دعوتهم وإنذارهم ، متطلعا إلى استجابتهم وإيمانهم ، فنزلت حالته - ﷺ - هذه منزلة حال المتردد فى استمرارهم على الكفر وعدم الإيمان واستواء الإنذار وعدم الإنذار لديهم ، ولذا جاء الخبر مؤكدا بإن ، ثم جاء التعليل (الاستئناف البيانى) فى الآية الثانية (ختم الله) وكأن المخاطب قد سأل : لماذا يستوى الإنذار وعدمه لديهم ؟ ولم لا يؤمنون ؟ فجاء الجواب (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وهذا التعليل ينبىء بمدى حرص النبى - ﷺ - على هداية الكفرة ، وتطلعه إلى استجابتهم وإيمانهم ..

وقد جاء المسند اليه اسم موصول حيث تومىء جملة الصلة

(كفروا) إلى وجـه بنـاء الخبر ، وهو استواء الإنذار وعـدمه لديهم وعـدم إيمانهم ، كما نقول : الذى اجتهـد طول العام نجـح ، **فجملة** الصـلة (اجتهـد طول العام) أومأت الى وجـه بناء الخبر (نجح).

فى قوله تعـالى : « **أأنذرتهم أم لم تنذرهم**) ولى الهمزة الفعل لأنه هـو المستفهم عنـه ، وعندما تكون الهمزة للتصـور فانه يليهـا المستفهم عنـه ، يقال : أأكرمت أم أهنت ؟ فى الاستفهام عن **الفعـل** ، ويقال : أأنت أكرمت أم زيـد ؟ فى السـؤال عن الفاعل ، **ويقـال : أزيداً** أهنت أم عمـراً ؟ فى السؤال عن المفعول ... وهكذا ..

وقـد يكون الاستفهام عن الفعل ويلى الهمـزة غيره للمبالغة ... متى يكـون ذلك ؟(٢٣) ؟

ولا يخفى علينـا أن الهمزة وأم مجـردتان لمعنى الاسـتواء ، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام ، كمـا تأتى صـيغة النـداء ولا يراد بهـا النـداء وإنمـا يـراد بهـا التخصيص نحـو : اللهـم اغفـر لنـا أيتهـا العصابة(٢٤) ...

---

(٢٣) يكون ذلك اذا كان للفعـل فاعل محـدد أو مفعول أو ظـرف ليس للفعـل سـواه بمعنى أنه لا يقع إلا من هذا الفاطل ، أو لا يقع الا على هـذا المفعول ، أو لا يقع الا فى هـذا الظرف ، فعنـدئذ يلى الهمزة أو يليهـا ويعطف على ما وليهـا بأم ، ذلك المحـدد الذى ليس للفعـل سـواه ، ويكون المراد الاستفهام عن الفعل مثال ذلك : أفى ليـل وقع هـذا أم فى نهار ؟ وقوله تعالى : (**آلذكرين حرم أم الأنثيين**) وقوله عز وجل (**أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهـين من دون الله**) وما من ريب فى أن انتفاء الفاعل أو المفعـول أو الظرف الذى ليس للفعـل سـواه يكون أبلغ فى انتفاء الفعـل وإنكاره .. يراجع دلائل الإعجاز ص١٤٧ .

(٢٤) انظر الكشاف جـ ١ ص ١٥٢ .

وفصلت جملة (لا يؤمنون) عن الجملة قبلها (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) لكمال الاتصال ، لأنها مؤكدة لها ، ومبينة لاستواء الإنذار وعـدمه فى عـدم الإجـداء ، ولك أن تجعل جملة (لا يؤمنون) خبـر إن ، والجملة قبلها اعتراض ، والأول وهو جعلها تأكيدا وبيانا للاستواء فى عـدم الجدوى أولى ، لأن استواء الإنذار وعدمه فى عـدم الإجـداء أقوى وأظهر من نفى الإيمان فى الدلالة على الغرض المسوق لـه الكلام وهـو إصرار هؤلاء الكفرة على العناد واستمرارهم وبقاؤهم فى الكفر ، فجعله عمـدة فى الكلام أولى من جعله اعتراضيا مستغنى عنه(٢٥) ..

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عـذاب عظيم) الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصـار من باب المجـاز ، فهمـا إمـا من قبيـل الاستعارة التصريحية ، أو من قبيـل الاسـتعارة التمثيلية ، بيـان ذلك :

أن لفظ (الختم) اسـتعير من ضرب الخاتم على الشىء ليمنـع نقشـه نفوذ شىء إليه ، لإحداث هيئة فى القلب والسمع مانعة من خلوص الحق اليهما ، فقـد استعير الختم المحسوس لأمر معقول وهو احداث تلك الهيئة المانعـة ، ووجـه الشبه هو المنع فى كل ، ثم اشتق من الختم

---

(٢٥)فى قوله تعالى (سـواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنـذرهم) وجهان من الإعراب ، أن يعرب (سواء) خبرا مقدما و (أأنذرتهم أم لم تنـذرهم) فى موضـع الابتـداء والمعنى سـواء عليهم انذارك وعـدمه ، ولا يقال كيف يخبر بالاسم عن الفعل والفعل لا يكون إلا خبرا ؟ لأن هـذا من جنس الكلام المهجور فيـه جانب اللفـظ الى جانب المعنى ، والوجـه الثانى أن يكون (سـواء) اسـ ما بمعنى الاسـتواء فهو مصـدر بمعنى اسم الفاعل ، و (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) مرتفع به على الفاعلية والمعني : ان الذين كفـروا مستو عليهم انذارك وعدمه ..

(ختم) بمعنى : أحدث هيئـة فى القلب والسمع على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيـة فى الفعل ..

وكذا استعير لفظ (الغشاوة) من معناه الأصلى لحالة فى أبصارهم مقتضية لعـدم اجتلائها آيات الله ودلائله ، فهو استعارة تصريحية أصلية من محسوس لمعقول بجامع المنـع فى كل ، وبذا يكون فى (خـتم) استعارة تصريحية تبعيـة ، وفى (غشاوة) استعارة تصريحية أصلية ..

ويصـح أن يكون المجـاز فى الموضعين من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبهت حال قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم مع الهيئة الحادثة فيهـا المانعـة من الانتفـاع بها بحال أشـياء معـدة للانتفاع بها فى مصـالح مهمـة مع المنع عن ذلك بالختم والتغشية ، ثم استعير للمشبه اللفظ الدال على المشـبه به ، فكل طـرف من طرفى التشبيه مركب من عـدة أمور ، والجامع أمـر عقلى منتزع من تلك الأمور وهو عـدم الانتفاع بمـا أعـد للانتفـاع بسبب عروض مانع ، ومثال الاستعارة التمثيلية فى أقوالهم : أراك تقـدم رجلا وتؤخر أخرى ، يقال ذلك للمتردد فى الأمر ، وأراك تنفخ فى رمـاد وتضرب فى حـديد بارد وتخـط على المـاء ، ويقـال هـذا لمن يبذل جهـده فى عمل لا يثمر شيئا ..

وعندما نتامل الآية : (ختـم الله على قلوبهم وعلى سـمعهم وعلى أبصـارهم غشاوة) ونمعن النظـر فى بنائها نجد ما يلى :

أولا : الجـار والمجرور فى الموضعين الأول والثانى يتعلقـان بالفعل (ختم) وأمـا فى الموضع الثالث فهو خبر مقدم و (غشـاوة) مبتـدأ مؤخرا هذا على قـراءة رفع (غشارة) وأمـا على قراءة نصبها فهـو مفعول فعـل محذوف تقديره : جعـل أو أحـدث ، والجـار والمجـرور يتعلق به ، فالواو الأولي عطف للظرف علي الظرف قبله ، والواو الثانية

عطف للجملة على الجملة ، ولا يصح العكس للأمور الآتية :

١ ـ التصريح بالختم على السمع وخص البصر بالغشاوة فى قوله تعالى: **« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ٠٠ »**(٢٦) والقرآن يفسر بعضه بعضا ٠

٢ ـ أن القلوب والسمع لما كانت مكنونة مستترة ، كان استعمال الختم لها أولى ، والأبصار لما كانت بارزة وإدراكها متعلق بظاهرها كان استعمال الغشاوة لها أليق ٠٠

٣ ـ أن إدراك القلب والسمع من جميع الجوانب ، ولذا كان الأولى جعل المانع فيهما الختم الذى يمنع من جميع الجهات ، وأما إدراك البصر فمن جهة المقابلة فقط ، ولذا خص المانع فيه بالغشاء الذى يكون بين الرائى والمرئى ٠٠

ثانيا : تكرار حرف الجر (على) فى قوله تعالى : **(وعلى سمعهم)** يدل على شدة الختم فى الموضعين ، لأن ملاحظة الجار فى كل منهما تقتضى أن يلاحظ معنى الفعل مع كل من القلوب والسمع ، فكأن الفعل (ختم) قد ذكر مرتين ٠٠

ثالثا : جمعت القلوب والأبصار وأفرد السمع لأن السمع فى أصله مصدر والمصادر لا تجمع ، فلمح الأصل ، يدل على ذلك جمع الأذن فى قوله تعالى « **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ٠٠٠** »(٢٧) ، ولذا يقدر مضاف محذوف ، أى : وعلى حواس سمعهم ٠٠٠

---

(٢٦) الجاثية : ٢٣ ٠
(٢٧) فصلت : ٥ ٠

كما أن فى إفراد السـمع وجمع القلوب والأبصار تفننا فى القول ، وإشـارة إلى أن مدركات السمع نوع واحد ، وأن مدركات كل من القلوب والأبصـار أنواع مختلفة ٠٠

رابعـا : تنكير (غشاوة و (عذاب) للنوعية ، والمعنى أن على أبصـارهم نوعا من الأغطية غير مـا يتعارفه الناس ، وهو غطاء التعامى عن آيات الله ، لهم من بين الآلام العظـام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، وقيـل ان التنكير فى الموضعين للتعظيم ، والأول أرجح لاستفادة التعظيم من صريح الوصـف (ولهـم عـذاب عظيم) ٠٠

(ومن النـاس من يقول آمنـا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

الواو فى قوله تعالى : « **ومن الناس** » واو الاستئناف أو واو القصة وهى الواو التى تعطف مجموع جمـل متعددة مسوقة لغرض على مجموع جمل أخرى مسـوقة لغـرض آخر ، ويشترط فى هذا العطف التناسـب بين غـرضى المجموعين دون التنـاسـب بين آحـــاد الجمل الواقعة فى كل مجموع ، بخـلاف واو العطف التى تصـل بين جملتين ، فانها تتطلب المناسبة المصححة لعطف الجملة الثانية على الأولى ٠٠

ولام التعريف فى (الناس) إمـا للعهد الذكرى ، فيكون المـراد بهم : الذين كفروا المـار ذكرهم ، كأنه قيـل : ومن هؤلاء من يقول كذا ، وهم عبد الله بن أبى وأصحابه ، ومن كان فى حالهم من أهـل التصميم على النفـاق ، أو للجنس ، والمعنى : ومن جنس النـاس من يقول كذا٠

وسـواء أكانت اللام للعهـد أم للجنس فان المراد ذم هـؤلاء الكفار وتقبيحهم والتعجيب من صنيعهم وإصرارهم على الكفر والعناد ، والتنبيه على أن الصفات المذكورة فى تنافى الإنسانية ، فينبغى أن يجهل كـون المتصـف بهـا من النـاس ، وأن يتعجب من شـأنه ٠

والتعبير بالمضـارع (يقـول) يدل على تجـدد القول من هؤلاء،

واستمرار خداعهم ، إذ يظهرون خلاف ما يبطنون ، وينطقون بعكس مـا يضمرون ..

وقـوله تعالى (**آمنـا بالله وباليـوم الآخـر وماهـم بمؤمنين**) نلاحظ أن ذكر البـاء فى (وباليـوم الآخـر) بعـد ذكرها فى (بالله) قـد أفاد المبالغة فى تأكيد ما ادعـوه من الإيمانيين ، فهو واقع منهم – فى اعتقادهم – على صـفة الصـحة والاستحكام .

وقد جاء الـرد عليهم بنفى الإيمان عنهم على سبيل البت والقطع، حيث عـدل عن التعبير بالجملة الفعلية الى الجملة الاسمية فى قوله : (ومـا هم بمؤمنين) وكانت المطابقة لرد دعواهم تقتضى أن يقال : ومـا آمنـوا ، وفى هـذا العدول من التوكيد والمبالغة ما ليس فى غيره ، فقـد أدى تقـديم المسند إليـه وإيلاؤه أداة النفى بالإضافة الى زيادة البـاء فى المسند ، أدى ذلك الى تأكيـد إخـراج ذوات القائلين وأنفسهم من أن تكون طائفـة من طوائف المؤمنين ..

وهـذا شـأن ذلك التعبير ، تقـديم المسند اليه على خـبره غير الفعلى وإيلاؤه أداة النفى يفيـد إمـا التوكيد والمبالغة فى نفى الحـكم كما فى الآية الكـريمة ، وكما فى قوله تعـالى : «**مـا أنا بمصرخكم ومـا أنتم بمصرخى** »(٢٨) وإمـا الاختصاص كما فى قوله عز وجل : «**ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ..** »(٢٩) وذلك حسبما يقتضى السـياق ..

أمـا تقديمه على خبـره الفعلى بعـد النفى ، كقولك : ما أنـا فعلت ، ما محمـد أفسد هذا ، فانه يفيد الاختصاص فى الكثير الغالب ،

---

(٢٨) ابراهيم : ٢٢ .
(٢٩) هـود : ٩١ .

وقد يفيد مجرد التوكيد فى القليل النادر(٢٩) ...

وفى دعوى المنافقين الإيمان قيد بالله واليوم الآخر (**آمنا بالله وباليوم الآخر**) وفى إبطال دعواهم ونفى إيمانهم جاء مطلقا بلا تقييد (وما هم بمؤمنين) فما القول فى هذا ؟ .. **وما الغرض منه ؟**

إما أن يقال : التقييد بالله واليوم الآخر مراد ، وقد ترك فى الثانى لدلالة الأول عليه ، وإما أن يقال : ان التقييد فى الثانى غير مراد ، بل المراد الإطلاق ، والمعنى أنهم ليسوا من الإيمان فى شىء ، لا من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولا من الإيمان بغيرهما ، وهذا القول أرجح ، لأن فيه زيادة فى التأكيد والمبالغة فى إبطال دعواهم ونفى الإيمان عنهم ، وهو ما يلائم السياق ..

ولا يخفى علينا الطباق بين قوله : (**آمنا .. وماهم بمؤمنين**) حيث أثبت الإيمان ، ادعى المنافقون أنه ثابت لهم ، وواقع منهم ، ثم نفى عنهم بأبلغ وجه - كما بينا - ويعرف هذا لدى البلاغيين **بطباق السلب** ..

والطباق وغيره من فنون البديع ، ليس لمجرد الزينة والتحسين كما يرى كثير من البلاغيين ، بل لهذه الفنون فضلا عن الزينة وتحسين الكلام ، الأثر البالغ فى تجلية المعانى وإبرازها ، حسبما يقتضى المقام، فنجد للطباق فى الآية الكريمة أثره فى إيضاح المعنى المراد ، وإبراز عقيدة هؤلاء المنافقين وتناقضهم ، وافترائهم الكذب على الله تعالى ..

(يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)

---

(٢٩) ارجع الى كتابنا علم المعانى ج ١ ص ١٥٨ .

فصلت جملة (يخادعون ...) عن قوله تعالى : (يقول آمنا ... وما هم بمؤمنين) للاستئناف البيانى (شبه كمال الاتصال) اذ تضمنت الجملة الأولى سؤالا وجاءت الثانية جوابا له ، كانه قيل : لم يدعون الإيمان كاذبين ؟ وما نفعهم فى ذلك ؟ فجاء الجواب : (يخادعون ...) .

ويصح أن يكون الفصل لكمال الاتصال ، لأن (يخادعون) بيان لقوله تعالى (**يقول آمنا ... وما هم بمؤمنين**) .

وفى (يخادعون) مجاز بالاستعارة ، حيث شبهت صورة صنيعهم مع الله تعالى بإظهارهم الإيمان وهم كافرون ، وصورة صنيع الله تعالى معهم إذ أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده أهل الدرك الأسفل من النار ، وصورة صنيع الله المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله تعالى فيهم فاجروا ذلك عليهم ، شبهت هذه الصور بصورة صنع الخادع ، فهى استعارة تصريحية تبعية ..

وقوله : (وما يخرعون إلا أنفسهم) أسلوب قصر طريقه (النفى والاستثناء) والمعنى أن ضرر الخدع لا يلحق إلا أنفسهم ، ومكره لا يحيق الا بهم ، وعلى ذلك ففى لفظ (يخدعون) مجاز مرسل حيث أطلق الخدع وأريد ما يترتب عليه من الضرر ..

وقيل انه لا مجاز ، والمراد حقيقة الخدع ، فهم يخدعون أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ، وأنفسهم كذلك تخدعهم – على قراءة (وما يخادعون) – أى : تمنيهم وتحدثهم بالأمانى الكاذبة ، والأطماع الفارغة

وقد أوثر طريق (النفى والاستثناء) لأنه يستعمل فيما ينكره المخاطب ويجحده ويجهله ، أو فيما ينزل هذه المنزلة ، والمنافقون **ينكرون أن ضرر الخداع لاحق بهم ، راجع الى انفسهم ، ويدفعون**

ذلك ويجحدون ، ولذا جاء القصر بالنفى والاستثناء دون (إنما) التى تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ، ولا ينكره ..

وفى ختام الآية الكريمة بنفى الشعور (**وما يشعرون**) دون التعبير بالعلم مثلا (وما يعلمون) ما يشعر بانحطاط أولئك المنافقين وتدنيهم عن مرتبة البهائم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، حيث لا يدركون الأمر الجلى البين وهو لحوق ضرر الخداع بهم ، فهذا أمر واضح كالمحسوس ، وهم لتمادى غفلتهم ، كالذى لا حس له ولا شعور، وفى هذا من الذم والتهكم بهم ما فيه ، ولا يخفى عليك أن نفى الشعور يستلزم نفى العلم ، فالذى لا يشعر بالأمر الواضح لا يعلمه بالطريق الأولى

(فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون)

فصلت هذه الجملة (فى قلوبهم مرض) عما قبلها للاستئناف البيانى ، فهى جواب لسؤال انبعث من الكلام السابق فحواه : ما بالهم لا يؤمنون ؟ وما الموجب لخداعهم وما هم فيه من النفاق ؟ فجاء الجواب : فى قلوبهم مرض ..

والمراد بالمرض : الكفر وسوء الاعتقاد ، أو الهيئة الباعثة على ارتكاب الرذائل كالغل والحسد والبغض ، قال تعالى : « **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر** »(٣٠) أو الهيئة المانعة عن اكتساب الفضائل كالضعف والجبن والخور ، ونحو ذلك من الآفات الشبيهة بالمرض ، فهو معنى مجازى ، حيث استعير المرض لهذه الآفات ، كما تستعار السلامة والصحة فى نقائض ذلك ..

---

(٣٠) آل عمران : ١١٨ .

ويصح أن يراد بالمرض فى الآية : الظلمة ، لأن المرض يطلق فى اللغة على السقم وما يقابل الصحة ، وعلى الألم وعلى الظلمة ، قال الشاعر :

فى ليلة مرضت من كل ناحية

فما يحس بها نجم ولا قمر

وعلى هذا أيضا فالمعنى مجازى ، إذ المراد ظلام الكفر وسواده، لا حقيقة الظلمة ، كما فى قوله تعالى : « **يخرجهم من الظلمات إلى النور** »(٣١) ، أى : من الكفر إلى الإيمان ..

وتنكير (مرض) للدلالة على أنه نوع غير ما يتعارفه الناس من الأمراض ، وقد أفرد المرض فلم يجمع كما جمعت القلوب (فى قلوبهم) لأن تعداد المحال يدل على تعداد الحال ، فاكتفى بجمع (القلوب) عن جمع (المرض) .

وجملة (**فزادهم الله مرضا**) إما دعائية معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه والجملة المعترضة قد تقترن بالفاء ، كما فى البيت :

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتى كل ما قدرا

وإما إخبارية معطوفة بالفاء على الاسمية قبلها ، والتعبير بالاسمية (فى قلوبهم مرض) ثم عطف الفعلية عليها بالفاء ينبىء بأن المرض فطرة فيهم ثابتة ومحققة ، ولذا ازدادوا على الفور بما من الله به على المؤمنين مرضا ، وإذا لم يكن المرض طبعا متاصلا فيهم ، لزال عنهم وشفوا منه ، وتغيرت حالهم ، فحدث لهم بما من الله تعالى به على المؤمنين شفاء واستبراء ..

وفى قوله تعالى : (**فزادهم الله**) حذف المضاف ، والأصل : فزادها الله أى : فزاد الله قلوبهم ، وهذا الحذف ينبىء بتمكن المرض

(٣١) البقرة : ٢٥٧ .

واستشرائه فى جميـع الجسد ، وأنه لم يقف عند حد القلب فحسب ٠٠

وتنكير المرض فى قوله تعـالى : **(فـزادهم الله مرضـا)** للتفخيم والتعظيم ، أى فزادهم الله مرضـا عظيما فوق مرضهم الذى طبعوا عليه ٠

وفى قوله تعالى : **(وله عذاب اليم)** مجـاز عقلى ، لأن (أليم) فعيـل بمعنى مفعـل بفتح العين ، اسم مفعول من آلم ، والعذاب فاعـل للألم وليس مفعـولا ، فهو مجـاز عقـلى أسند فيـه اسم المفعول إلى الضمير العـائد على الفاعل (العذاب) ، كما فى قوله تعالى : « **حجابا مسـتورا** »(٣٢) ، وكما فى قولهم سيل مفعم بفتح العين ٠٠

والعـذاب الأليم يصيب المنافقين ويلحق بهم لأسباب كثيرة ولجهات عـديدة ، وجعـل الكذب هو السبب للحوق العذاب بهم فى قوله **:(ولهم عـذاب اليم بما كانـوا يكذبون)** ينبىء بشناعـة الكذب ، وينفـر من ارتكابه ، حيث خيـل - كما يقول الزمخشرى - أن العذاب لاحق بهم من أجـل كذبهم ٠

وكلمـة (كان) تدل على الاستمرار فى جميع الأزمنـة ، ووقـوع المضـارع بعـدها (يكذبون) يدل على الاستمرار التجددى الداخل فى جميع الأزمنـة ، فكذب المنافقين مستمر يتجـدد فى زمـان الحـكم ، وفى الزمن الماضى ، وفى المستقبل الآتى بعـد زمن الحكم ٠٠

(وإذا قيـل لهم لا تفسـدوا فى الأرض قالوا إنمـا نحن مصلحون الا إنهم هم المفسـدون ولكن لا يشـعرون) ٠

هـذه الجملة (اذا قيـل لهم ٠٠٠) معطوفة على مـا قبلهـا ، وفى تحـديد المعطوف عليه أقوال هى :

١ - قيـل المعطـوف عليه قوله تعـالى : **(يكـذبون)** لأنه أقـرب ، والمعنى أن سبب استحقاقهم العـذاب كذبهم وإفسادهم فى الأرض،

(٣٢) الإسراء : ٤٥ ٠

أى : ولهم عـذاب أليم بسبب كذبهم وإفسادهم .

٢ - وقيـل المعطوف عليه (يقول) فى قوله تعـالى : (**ومن النـاس من يقـول آمنـا بالله ...**) لتكون الآيات على نمط تعديد قبائحهم وإفادتها اتصافهم بكل من تلك الصـفات استقلالا وقصـدا ودلالتها أيضـا على أن لحوق العـذاب بسبب كذبهم الذى هو أدنى أحوالهم فى الكفـر والنفاق ، فمـا بالك بسائر أحوالهم ..

٣ - وقيل إنها معطوفة على قوله : (ومن النـاس ..) لبيان حالهم فى ادعـاء الإيمان وكذبهم فيـه أولا ، ثم بيان حالهم فى امكانهم فى باطلهم ورؤية القبيح حسنا والفسـاد صـلاحا ثانيا ، وهـذا أرجح الأقوال فى تحـديد المعطوف عليه ، لأنه يجعـل المعتمـد بالعطف مجموع الأحوال ، وهـذا ما يقتضيه السياق ويتلاءم مع تعـداد القبائح ..

وفى إيثـار التعبير (بإذا) دون (إن) مـا يفيد تحقق القـــول وإسداء النصح ، وعلى الرغم من تحقق القول وإسـداء النصح ، فقـد أعرضـوا واستمروا فى غيهم وأصروا على عنادهم .. والقائل إمـا النبى ﷺ مبلغـا عن ربه الذى أخبره بنفاقهم ، وامـا بعض المؤمنين المتفرسين بنـور الإيمـان أحوالهم ، وإمـا بعض من كانوا يلقـون إليهم الفسـاد فلم يقبـلوه منهم لأمر مـا وانقلبـوا لهم واعظين ناصحين ، وحـذف الفاعل وبنـاء الفعـل للمفعول قد جعل المعنى يتسع لكون القـائل أحـد من ذكـرنا ..

والمراد بالنهى فى قوله تعـالى : (**لا تفسدوا**) النصح والإرشـاد والمراد بالأرض جنسـها ، فأل للاستغراق ، والنهى عنـدئذ عن الإفساد فى أى فـرد من أفرادها ، أو المراد بهـا المدينـة المنـورة فأل للعهـد الذهـنى ..

ولا يقال : كيف أسـند الفعل إلى الفعـل فى قولـه تعـالى : (**قيـل لهم لا تفسـدوا**) ومثله : (**قيل لهم آمنـوا**) ؟ لأن الذى لا يصـح هو إسـناد الفعل إلى معنى الفعل ، وأمـا إسـناده إلى لفظه كما هنا فهـو صحيح ، كأنه قيل : وإذا قيـل لهم هـذا القول ، فالألفاظ سـواء أكانت مهملة أم مستعملة ، مفردة أم مركبة يصح الإسناد إليها ، أى إلى ألفاظها سـواء كانت مجردة عن ملاحظة معانيها ، كما فى قولنا : ألف من ثلاثة أحـرف ، أو مأخوذة معها ، كما فى الآية (**قيـل لهم لا تفسـدوا**) إذ المسـند إليه لفظها باعتبار الدلالة على المعنى ..

وقوله تعـالى : « **إنمـا نحن مصلحون** » أسـلوب قصر ، قصروا أنفسهم على الإصلاح المحض الذى لا يشـوبه شىء من وجـوه الفساد ، فهو قصر إفـراد ، لأنهم لمـا نهوا عن الإفساد ، وتوهموا أنه قـد حكم عليهم بأنهم يخلطون الإصلاح بالإفساد ، أجابوا بأنهم مقصورون على محض الإصلاح لا يشوبه شىء من وجوه الفساد والإفساد ..

وإيثـــار التعبير بإنمـــا دون غيرها من طـــرق القصر كالنفى والاستثناء مثلا ، للدلالة على أن هـذا أمر واضح لا ينبغى أن يرتاب فيـه أحـد ، أو يجهله ، لأن (إنمـا) تستخدم فيمـا الشأن فيـه أن يعلمه المخاطب ، لا ينكره ولا يشك فيـه .

وفصـل قوله تعـــالى : (**ألا إنهم هم المفسـدون**) عمـا قبلـه للاستئناف البيـانى ، كأن قائلا قال : وهل صدقوا فى دعواهم الاصلاح ؟ فأجيب : ألا إنهم هم المفسدون ، وهذا رد لدعواهم بأبلغ وجه ، فبالإضافة إلى الاستئناف البيانى الذى أدى إلى زيادة تمكن الحكم فى ذهن السامع قـد جـاء التأكيد بألا وإن ، وتوسـط ضمير الفصل وتعريف الخـبر ، ثم قوله (لا يشعرون) .

(فألا) أداة تنبيه قيل إنهـا مركبة من همزة الاستفهام و (لا) النافيـــة ، فهى تفيـد التنبيـه على تحقيـق مـا بعـدها ، لأن الهمزة

للاستفهام الإنكارى ، وإنكار النفى تحقيق للإثبات وقيل إنها بسيطة لا تركيب فيها ، وتفيد التنبيه والتحقيق بأصل الوضع، ومثلها (أما) وسواء أكانتا مركبتين أم غير مركبتين ، فهما يستخدمان فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تنبيه وتأكيد وتحقيق، كما فى الآية (**ألا إنهم هم المفسدون**) وكما فى قوله تعالى « **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم** »(٣٣) وكما فى قول القائل :

أما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى
أليفين منها لا يروعهما الذعر

فهما لا تكاد الجملة تقع بعدهما إلا مؤكدة بنحو ما يتلقى به القسم ، كإن واللام وقد وحرف النفى ..

وقوله : (انهم هم المفسدون) أسلوب قصر طريقه تعريف المسند بأل ، فهم مقصورون على الإفساد قصر قلب ، وضمير الفصل تأكيد لهذا الحصر ، وهذا مناسب لرد دعواهم الكاذبة ، فإنهم لما قصروا أنفسهم على الإصلاح قصر إفراد ، ناسب فى الرد أن يقصروا على الإفساد قصر قلب ، أ ى: هم مقصورون على الإفساد ، لاحظ لهم فى الإصلاح(٣٤) .

ومما يؤكد رد دعواهم قوله تعالى : (**ولكن لا يشعرون**) فهو

---

(٣٣) يونس : ٦٢ .
(٣٤) الأصل فى هذا الطريق أن المقصور هو المقترن بأل ، والمقصور عليه الخالى منها ، ولكن السياق فى الآية الكريمة اقتضى مخالفة هذا الأصل ، وأوجب أن يكون المقصور الضمير العائد على المنافقين فى قوله : (إنهم) والمقصور عليه المسند المقترن بأل (المفسدون) كما رأينا .

يدل على أن كونهم مفسدين قــد ظهر ظهورا بينــا ، وصار كالمحسوس ، ولكن لا حس لهم ليدركوه ..

وقــد جــاءت أداة الاستدراك (لكن) هنا ، ولم تأت هناك بعد المخادعة فى قوله تعــالى : (**يخــادعون الله ... ومــا يشــعرون**) لأنه لم يتقــدم فى المخادعة ما يتوهم منــه الشعور توهما يقتضى التعقيب برفعــه ، وأما هنا فقــد تقدم نهيهم عن الإفساد وإجابتهم أنهم مصلحون ورد تلك الإجابة ،ولذا كان الأمر هنا محلا للاستدراك ، دون ما هناك.

ومفعول (لا يشعرون) محــذوف ، تقــديره : ولكن لا يشــعرون أنهم مفســدون ، ولا يقال : كيف يذم من أفسد ولم يعــلم ، وإنمــا يذم من أفســد عن علم ؟ لأن تقصيرهم فى العـــلم مع التمكن منــه يوجب ذمهم ..

ويحتمل أن يكون تقدير المحذوف : ولكن لا يشعرون أن وبال ذلك الفساد يرجــع إليهم ، أو : ولكن لا يشعرون أنا نعلم أنهم مفســدون ، وعندئذ فقوله تعــالى : (**ألا إنهم هم المفسدون**) خبر أريد به لازم الفائد لأنهم يعلمون الخبر ، أى : يعلمون أنهم مفســدون ، ولكن يجهلون علم المتكلم به ، أو يجهلون عاقبــة الإفســاد ، ورجوع وباله إليهم ، فالخبر اذا أريد به لازم الفــائدة ، لأن المخاطب ان كان يجهل الحكم ، فالغرض من الخبر : فائدته ، وإن كان يعلم الحكم ، فالغرض منــه هــو (لازم الفــائدة) ..

ويحتمــل ألا ينــوى تقــدير محذوف ، ويكون الفعــل كاللازم ، والمعنى : أنهم ليســوا من أهل الشــعور والعلم ، وهذا أبلغ فى ذمهم، وفيــه مزيد تسلية لرســول الله - ﷺ - ، لأن من كان من أهــل الجهل ، لا يعبــأ به ، ولا ينبغى أن يكترث بمخالفته ..

(وإذا قيــل لهم آمنــوا كما آمــن النــاس قالــوا أنؤمن كمــا آمن السـفهاء ألا إنهم هم الســفهاء ولكن لا يعلمــون) .

وصلت هـذه الآية بقوله تعـالى : **(وإذا قيـل لهم لا تفسـدوا)** تعـدادا لقبائح المنافقين ، وإصرارهم على العنـاد والمـكابرة ، فقـد نصـحوا أولا بترك الرذائل والتخلى عن الإفسـاد ، فأبوا ولم يستجيبوا ثم نصـحوا ثانيا هنـا باكتساب الفضائل وتحصـيل الإيمـان ، فأبـوا وسـخروا عنـادا وتكبرا ..

وإيثـار التعبير (بإذا) دون (إن) يفيـد تحقق وقوع النصح ، والقائل ـ كما وضحنا فى الآية السابقة ـ هو النبى ـ ﷺ ـ أو المؤمنون، أو بعض من كانوا يلقـون إليهم النفاق فلم يقبلوا ، وانقلبوا لهم ناصحين وحذف الفاعل فى (قيل) جعل المعنى يتسع لذلك ـ كما ذكرنا ـ ويشعر بأنهم نصحوا من جهـات عـدة ، ومع ذلك أبوا إلا العنـاد والمكابرة ..

ولا يعترض على كون الناصح النبى ـ ﷺ ـ أو المؤمنين بأن ذلك يلزم مجاهرتهم بالكفر ، فيكونون كفارا لا منافقين ، لأن إجابة المنافقين الناصح وقولهم له : أنؤمن كما آمن السفهاء ، يحمـل عندئذ على أنه كان مقولا فيما بينهم ، وليس مقولا فى مواجهـة المؤمنين أو النبى ﷺ ..

والأمر فى قوله تعـالى : **(آمنـوا)** للنصـح والإرشـاد ، فقـد نصحوا بأن يتحقق إيمانهم ، وأن يكون إيمانا مشابها لإيمـان الناس ، خالصـا من شوائب النفاق الذى تمكن منهم ، وملئوا به ..

فالمطلوب منهم إيمـان يكون مقرونا بالإخلاص ، بعيدا عن النفاق، مماثلا لإيمـان النـاس ، وتشبيه الإيمـان المطلوب تحقيقـه منهم بإيمان النـاس ، يدل على سـوء أحوالهم ، وظهـور نفاقهم ، وأن ما ادعوه من إيمـان لا وجود له ، بل هم عنـه بمعزل إذ «**يقولون بأفـواههم ما ليس فى قلوبهم**»(٣٥) ولذا طلب منهم أن يستقيموا على الطريقة ، وأن يتخلوا عن النفاق ، وأن يؤمنوا إيمانا خالصـا كإيمان الناس ..

---

(٣٥) آل عمران : ١٦٧ .

واللام فى (الناس) إمـا للعهد ، والمراد بهم الرســول ﷺ ومن آمن معــه ، أو للجنس ، أى : كمـا آمن جنس النــاس ، الكاملون فى الإنسانية ، جعل المؤمنون كأنهم النـاس على الحقيقـة ، ومن عـداهم ليسوا من الإنسانية فى شىء ، فهم كالأنعـام بل هم أضـل ، حيث فقدوا التمييز بين الحق والباطل ٠٠

والاستفهام فى قوله تعـالى : **(أنؤمن كما آمـن السفهاء)** للإنكار الإبطالى ، والمعنى : لن يكون ذلك الإيمـان أصـلا ، وإطلاقهم لفـظ السفهاء على المؤمنين يدل على مـدى العنـاد والمكابرة ، والإصرار على الضلال والغى ، حيث جعلوا الكاملين فى الانسانية سفهاء ٠

واللام فى (السفهاء) امـا للعهـد ، والمراد بهم النـاس المذكورون فى الآية قبـل ، وإمـا للجنس ، وينطوى تحتـه المذكورون لأنهم – فى زعمهم واعتقادهم – أعرق الناس فى السفه ٠٠

وقد جـاء الرد عليهم بأبلغ وجـه (ألا إنهم هم السـفهاء) حيث فصـل عما قبله للاستئناف البيانى ، وصدر بأداة التنبيه (ألا) وتلتها أداة التوكيـد (ان) ، وجىء بضمير الفصـل (هم) وعرف الخبر بلام الجنس ، (السفهاء) فهم مقصورون على السـفاهة ، وطـريق القصر تعـريف الخبر باللام ، وضمير الفصل مؤكد لهـذا القصر ، وقد سـبق تفصـيل ذلك فى الآية السابقة (ألا إنهم هم المفسدون) فعد إليه(٣٦)٠

---

(٣٦) الأصـل فى طريق (تعريف الخبر بأل) أن المقصور هو المقترن بأل والمقصور عليـه هو الخـالى منها ، ولكن السـياق اقتضى مخالفة هـذا الأصل وجعل المقصور المسند اليـه والمقصور عليـه المسند المقترن بأل ، فهم مقصـورون على السفاهة ، موقوفون عليهـا وهـذا أبلغ فى ذمهم وتقبيحهم من جعل السفاهة مقصورة عليهم لا تتعداهم إلى المؤمنين ، وبهـذا يتضح لنـا أن السياق قد يقتضى مخالفة الأصـل الذى قرره البلاغيون ، وقـد عرفنا أن الطريقين من طـرق القصر قد يجتمعـان ويقتضى السـياق اعتبار أحـدهما وإلغـاء الآخر لتعارضهما فى تحـديد المقصور والمقصور عليـه ، فالمعـول عليـه اذا هو السياق ، وما يقتضيه يقدم على الأصول والمقررات البلاغية عند تعارضه معها ٠

لم ختمت هـذه الآية بنفى العلم وختمت السابقة بنفى الشعور ؟

ختمت هـذه الآية الكريمة بنفى العلم (ولكن لا يعلمـون) وختمت السابقة بنفى الشعور (ولكن لا يشـعرون) لأن المثبت لهم هنـاك فى الآية السابقة هو الإفساد الذى نهوا عنه ، وهو مما يدرك بأدنى تأمل ، ولا يحتـاج إلى إعمال فكر ، لأنه أمـر دنيـوى ، مبنى على العـادات معلوم عنـد النـاس ، ولذا نفى عنهم الشـعور مبالغـة فى تجهيلهم ، لأنهم جهلوا ما يدرك بالمشاعر ..

وأمـا المثبت هنا فى هـذه الآية فهو السفه ، وقـد صـدرت الآية بالأمر بالإيمان ، وذلك ممـا يحتاج إلى نرظ واستدلال ، وتأمل يفضى إلى الإيمـان ، ولكن لم يقع منهم إيمان ، فناسب ذلك نفى العلم عنهم.

وأيضـا السفه هو خفـة العقل والجهل بالأمور ، والذى يناسـب ذلك أتم مناسبة هو نفى العلم الذى ختمت به الآية (ولكن لا يعلمون) .

(وإذا لقـوا الذين آمنـوا قالـوا آمنـا وإذا خـلوا إلى شـياطينهم قـالوا إنـا معـكم إنمـا نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم ويمـدهم فى طغيـانهم يعمهـون) .

وصلت هذه الآية الكريمة بقوله تعـالى فى الآية السابقة : (وإذا قيـل لهم آمنـوا ...) تعـدادا لأحوال المنافقين ، اذ تضـيف وصـفا آخـر لأوصافهم السابقة ، وهو الكشف عن حالهم عنـد لقائهم المؤمنين وعنـد خلوهم بإخوانهم فى الضـلال ، فهم إذا لقـوا المؤمنين ادعـوا الإيمان ، وإذا انفردوا بقـرناء السـوء نفوا ما ادعوه وأكدوا لهم أنهم مـا ادعوه إلا سخرية واستهزاء .

وهكذا تتوالى أحـوال المنافقين ، وتعـدد الآيات قبائحهم وأفعالهم المشينة ، حيث بدأت ببيـان نفاقهم ، إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، وخـداع المؤمنين ، وتمكن الكفر والحقـد من قلوبهم ، ثم كشـفت عن إفسادهم وتعاميهم عن الحق ، ثم أبرزت سفاهتهم ورفضهم أن يكونوا

بوجه

كالخيار فى تحصيل الفضائل ، ثم بينت هذه الآية كيف أنهم يتلونون فيلقون المؤمنين بوجه ، ويلقون إخوانهم فى الضلال والنفاق بوجه آخر ، وهكذا تتعدد قبائحهم ، وتتوالى شنائعهم ..

وفى التعبير بقوله تعالى : (لقوا ... وخلوا الى) بيان لحالين مختلفين للمنافقين ، فحالهم مع المؤمنين لقاء يقع ، وحالهم مع شياطينهم خلو إليهم ، وانفراد بهم ، وإقبال عليهم ، يقال : خلا اليه ، وخلا به أى : انفرد معه ، أو خلا غيره اليه بحذف المفعول، والتقدير : واذا خلوا المؤمنين الى شياطينهم ، وهذا الحذف يومىء الى مدى كراهتهم وبغضهم للمؤمنين ، واستثقالهم لقاءهم ، فما يكاد اللقاء ينتهى ، حتى يسارعوا الى شياطينهم ، ولذا لم يقل : واذا خلوهم الى شياطينهم ، بل قال : (واذا خلوا الى شياطينهم) ليدل على مدى التلهف إلى الخلو بهم ، والتفرد معهم ، فالفعل (خلا) إما لازم بمعنى انفرد ، وإما متعد بمعنى ترك وتجاوز يقال : افعل كذا وخلاك ذنب ، أى : تركك وتجاوزك ولم يصبك .

فشأن المنافقين مع المؤمنين لقاء يعقبه ترك لهم ، وخلو الى ما يريدون مع شياطينهم ، وهذا يدل على بغضهم المؤمنين – كما قلت – وعلى مدى حبهم وإخلاصهم لشياطينهم ، وحرصهم على الخلو إليهم والتفرد بهم ، ومما يؤكد هذا المعنى تلك الاضافة (شياطينهم) التى تدل على الاختلاط والامتزاج والحب المتبادل بينهم ..

ولذا كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية : (آمنا) ومخاطبتهم شياطينهم بالجملة الاسمية المؤكدة : (إنا معكم إنما نحن مستهزءون) لأن كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، يكون بلا توكيد ، ليدل على أن النفس غير ممتلئة به ، وغير حريصة عليه ولعلمها أنه لا يروج عنها إذا جاء على لفظ التوكيد والمبالغة، لهذا كان خطاب المنافقين المؤمنين بلا توكيد (آمنا) وأما خطابهم إخوانهم للشياطين ، فنابع من قلوبهم ، صادر عن أريحية وصدق

رغبـة ، وأنفسهم به ممتلئـة ، وهم على ثقـة أن ما قالوه سيكون رائجا ومتقبـلا منهم ، ولذا جـاء مؤكدا (إنا معكم إنمـا نحن مستهزءون) .

ومن هنا يتضح لك أن أضرب الخبر لا يعـول فيهـا دائمـا على حال المخاطب ، بل قـد يعول على أمـور أخـرى غير حال المخـاطب، كحـال المتكلم ومـدى انفعاله بالخبر أو عـدم انفعاله به ، وارتياحه له أو عـدم ارتياحه ، وحرصه عليـه أو عدم حرصه ، ، كما رأينـا فى الآية الكريمة (٣٧) .

وفصلت جملة (إنما نحن مستهزءون) عن جمـلة (إنا معكم) لكمال الاتصـال لأنها توكيـد لهـا وتقرير ، ويصح أن يكون الفصـل للاستئناف البيـانى ، كأنهم حين قالوا (إنا معكم) اعترضـوا عليهم فسالوهم : فما بالكم إن صح انكم معنـا توافقون أهم الإسلام ؟ فأجابوا (إنمـا نحن مستهزءون) .

أمـا جملة (الله يستهزئ بهم) فقـد فصلت عمـا قبلها إما لشبه كمال الانقطاع ، لأنه يصح عطفها على الجمـلة الشـرطية (إذا خـلوا ولكن عطفها عليها يوهم العطف على قوله (إنا معكم) فيتـدرج فى فى مقول المنافقين ، أو على قوله (قالوا) فيتقيـد بالظرف ، فدفعـا لهـذا التوهم كان الفصـل .

وإمـا أن يكون الفصـل للاستئناف البيـانى ، وكان سـائلا سأل : مـا مصير هؤلاء المنافقين ، وكيف كانت معاملة الله تعـالى والمؤمنـين إياهم ؟ فأجيب (الله يستهزئ بهم) ...

وإسناد الاستهزاء إلى لفـظ الجلالة يفيـد المبالغة فيما ينزل بهم من النكال ، ويحـل بهم من الهوان والذل ، كما يدل على أن الله سبحانه وتعـالى يكفى عبـاده المؤمنين التصدى للمنـافقين ، وينتقم لهم ، ولا

---

(٣٧) ارجـع إلى كتابنا على المعـانى جـ ١ ص ٥٠ لتقف على الأمـور الأخرى التي يعـول عليها في إلقاء الخبر غير حال المخاطب .

يحوجهم إلى الرد عليهم ومعارضتهم ، وذلك تعظيما للمؤمنين ، وإعلاء لشانهم ٠٠

والمراد باستهزاء الله بهم : عقابهم وجزاؤهم على استهزائهم ، فهو مجاز مرسل ، حيث أطلق السبب وأريد المسبب ، أطلق الاستهزاء وأريد جزاؤه ، وذكر العقاب بلفظ (الاستهزاء) فى صحبة قولهم : (إنما نحن مستهزءون) مشاكلة لطيفة ، ومثله قوله تعالى : « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** »(٣٨) وقوله عز وجل : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** »(٣٩) ٠

والعدول إلى التعبير بالمضارع فى قوله تعالى : (يستهزىء) بعد التعبير بالاسم فى قوله عز وجل : (نحن مستهزءون) يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت ، أى : يفيد التجدد الاستمرارى ، وهذا أبلغ من الاستمرار الثبوتى الذى تفيده الجملة الاسمية ، لان البلاء اذا استمر ثابتا قد يهون وتألفه النفس ، واذا تجدد كان أنكى واشد ، ولذا كانت نكايات الله تعالى فيهم ، ونزول الآيات فى شانهم أمرا متجددا مستمرا ، قال تعالى : « **أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين** »(٤٠) وقال عز وجل : « **يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم** »(٤١)٠

وتقديم لفظ الجلالة المسند اليه فى قوله (الله يستهزىء بهم) على خبره الفعلى يفيد الحصر ، أى : قصر الاستهزاء بهم على الله وحده ، دون المؤمنين تعظيما لشانهم ، حيث ينتقم سبحانه وتعالى لهم ، ولا يحوجهم الى التصدى للمنافقين ومعارضتهم ـ كما ذكرنا ٠٠

وهذا شان المسند اليه عندما يقدم على خبره الفعلى فى الاثبات

---

(٣٨) الشورى : ٤٠ ٠
(٣٩) البقرة : ١٩٤ ٠
(٤٠) التوبة : ١٢٦ ٠
(٤١) التوبة : ٦٤ ٠

نحو أنا أكرم الضيف ، محمد يصنع المعروف ، وقولهم فى المثل : (أتعلمنى بضب أنا حرشته) فهو يفيد إما التوكيد ، كما فى المثالين وإما الحصر كما فى المثل ، وكما فى الآية الكريمة، وذلك حسبما يقتضى السياق(٤٢) .

وإيثار التعبير بإنما فى قوله تعالى : (إنما نحن مستهزءون) يفيد أن استهزاءهم أمر واضح جلى ، لا يجهله أحد ، ولا ينكره منكر ، ولذا كان عقابهم أشد وأبلغ ـ كما بينا فى قوله تعالى : (الله يستهزىء بهم) .

ووراء الإضافة فى قوله : (شياطينهم) .. (طغيانهم) معان لطيفة ، فهى تدل على مدى انغماسهم فى الضلال ، وتأصلهم فى الطغيان ، إذ صارت لهم شياطين تضاف إليهم ، وتعرف بهم ، وهم قرناء السوء ، كما صار لهم طغيان ينسحب عليهم ، ويندرجون تحته ، وقد عرفوا به واشتهروا ، وبات خاصا بهم ، وملازما لهم ، لا ينصرف الى من عداهم ممن يطغى ، وهذا المعنى يفتقد ، لو عرف الطغيان بالألف واللام ، وعدل عن إضافته إليهم ، فقيل : ويمدهم فى الطغيان ..

ولا يخفى علينا أن الوصل بين الجملتين : (يستهزىء بهم) ، (ويمدهم فى طغيانهم) ، للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، حيث اتفقت الجملتان فى الخبرية لفظا ومعنى ، ومما حسن الوصل بين الجملتين تناسبهما فى كون المسند فيهما مضارعا ، وتناسبهما أيضا فى القيد (بهم) .. (فى طغيانهم) وكذا القول فى الوصل بين الجملتين : (اذا لقوا ...) (واذا خلوا ...) .

وأوثر التعبير (بالعمه) دون (العمى) فى قوله تعالى : (يعمهون) لأن المراد بالعمه : التردد والتحير ، ويستعمل فى الرأى

---

(٤٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٥٩ .

خاصة ، وأما العمى فإنه يستعمل فى الرأى وفى البصر ، فالعمه أخص فى الاستعمال ، وقد أوثر بالتعبير ، لأن المراد عمى البصيرة ، لا عمى البصر ..

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)

فصلت هذه الآية عما قبلها ، ويرجع هذا الفصل إما إلى أنها مقررة لقوله تعالى : (الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) فالفصل بينهما لكمال الاتصال ، أو الى أنها تعليل لاستحقاقهم الاستهزاء الأبلغ ، والمد فى الطغيان ، فالفصل بينهما للاستئناف البيانى ، وكأن سائلا سأل : لم يستهزىء الله بهم هذا الاستهزاء ، ويجازيهم هذا الجزاء ، ويذيقهم ذلك الذل والهوان ؟ فأجيب : لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) .

ويمكن أن يكون الفصل للاستئناف البيانى ، ولكن ليس بالاعتبار المذكور ، بل بكون التعليل ينسحب ويمتد الى جميع صفات المنافقين التى جليت فى الآيات المتقدمة ، فإن السامع بعد سماع أحوالهم ، وإجراء تلك الأوصاف عليهم ، كأنه يسأل : كيف اتصف هؤلاء بهذه الأوصاف المشينة ؟ ومن أين جاءتهم هذه القبائح ودخلت عليهم تلك الشنائع ؟ فيجاب بأن أولئك المستبعدين إنما جسروا عليها لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، فخسروا صفقتهم ، وفقدوا الاهتداء الى الطريق المستقيم ، ووقعوا فى تيه الحيرة والضلال ، وهكذا يمتدّ الترابط ، وتتغلل العلاقات بين الجمل الى أعماق بعيدة ، ولا تقف عند حد الجمل المتجاورة ..

والتعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد (أولئك) يدل على بعد منزلتهم فى الشر وسوء حالهم ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، وعندما يأتى اسم الإشارة بعد عدة صفات فيشار به إلى أن

من تعـددت صفاتهم قد استحقوا الجزاء الواقع بعده بسبب تلك الصفات التى عـددت ، عندما يأتى كذلك يكون له موقع لطيف حسن ، كما فى الآية الكرمـة ، فقـد توالت قبل صفات المنافقين ، ثم ذكر اسم الإشارة (أولئـك) فنبـه الى أن من تقدمت أوصـافهم جديرون بالجزاء المذكور بعـد ، وهو قوله تعـالى : (**فمـا ربحت تجـارتهم ومـا كانوا مهتدين**) ويستحقونه ، وصـاروا له أهـلا ، بسبب تلك الصفات المتقدمة ..

ومن ذلك قوله تعالى (أولئك هم الوارثون) فى سورة (المؤمنون) فقـد ذكرت الإشارة بعـد تعداد صفات المؤمنين ، فنبهت إلى جدارتهم بالجـزاء المذكور بعد ، وكذا القول فى قوله تعـالى عقب ذكر صـفات المؤمنين فى هذه السـورة الكريمة (أولئـك على هـدى من ربهم وأولئك هم المفلحـون) ـ كما بينـا ـ .

وقد قصر المسند على المسند إليـه فى قوله (أولئك الذين اشتروا الضـلالة بالهـدى) لأن تعـريف الموصـول للجنس فهو بمنزلة التعريف بأل التى للجنس ، وهو قصر حقـيقى غير تحقـيقى ، لأنه قائم على المبالغـة ، والدلالة على بلوغهم الكمال فى اشتراء الضـلالة ، وكأن من عداهم من الكفار وإن شاركوهم فى ذلك الشراء ، لا يعتـد بمشاركتهم لبلوغ أولئك المنافقين الغاية فى اشتراء الضلالة بالهدى .

وقـد استعير الاشتراء للاختيـار والاسـتبدال فى قوله تعـالى : (اشتروا الضلالة بالهدى) ، ثم اشتق من الاشتراء (اشـترى) بمعنى: اختـار الضـلالة واستبدلها بالهدى ، لأن الاشتراء فيـه إعطـاء بـدل وأخـذ آخـر ..

ولا يقـال : كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وهم ليسوا على هدى ؟ وكيف يدفعـون ثمنـا ليس بأيديهم ؟ لأن المـراد تمكنهم من الهـدى وعرضـه لهم ، فكأنه فى أيديهم ، فاذا تركوه الى الضلالة فقـد عطلوه واستبدلوها به ، أو لأن المراد بالهـدى الفطرة التى جبلوا عليها ، وقد

كانوا على هـذا الهدى بلا شبهة وكان حاصـلا لهم حقيقـة ، فإن كل مولود يولد على الفطرة ، ثم استبدلوا به الضلالة ..

و (الضـلالة) و (الهـدى) مجازان مشهوران ، لأن المعـنى الحقيقى للضـلالة : الجـور عن القصـد ، وللهـدى : التوجه اليـه ، فاستعيرت الضلالة للعـدول عن الصواب فى الدين ، والهـدى للاستقامة عليـه ، وقد اشتهر هذا المجـاز حتى صار كالحقيقة ..

وفى اسـناد الربح الى التجـارة فى قوله تعـالى « **فمـا ربحت تجـارتهم** » مجـاز عقلى ، حيث أسـند الفعل الى مفعوله ، وأصـل الإسناد : فمـا ربحوا فى تجارتهم ، والتجوز فى الإسناد فى الآية يفيـد المبالغة فى خسرانهم وبوار تجارتهم ..

ويعـد هـذا المجاز العقلى ترشيحا للاستعارة فى قوله تعـالى : « **اشـتروا الضـلالة بالهـدى** » اذ ترشيح المجـاز اقترانه بصفة أو تفريع كلام يلائم معنـاه الحقيقى بعـد استيفاء القرينة ، وذكر الربح والتجارة فى الآية ممـا يلائم المعنى الحقيقى للفـظ الاشـتراء ، وذلك يقـوى الاستعارة ، ويحقق المبالغة فى التصوير ، وكان الكلام على الحقيقة ..

يقول الإمـام الزمخشرى : (هـذا من الصنعة البديعة التى تبلـغ بالمجـاز الذروة العليـا ، وهو أن تساق كلمة مسـاق المجـاز ثم تقفى بأشكال لهـا وأخوات اذا تلاحقن لم تر كلامـا أحسن منـه ديبـاجة ، وأكثر مـاء ورونقـا ، وهو المجاز المرشح) (٤٣) .

---

(٤٣) الكشاف ١٩٢/١ وعكس الترشيح : التجريد ، وهو أن يقرن المجاز بمـا يلائم المعنى المجـازى للفظ المستعار بعـد استيفاء القرينة كما فى قول البحترى :

يؤدون التحيـة من بعيـــد ... إلى قمـــر من الإيـــوان بـاد

حيث استعير القمـر للانسان الجميل ثم قرن بمـا يلائم المعنى المجـازى وهو قوله من الايوان باد ، فاذا لم تقترن الاسـتعارة بمـا يلائم أحـد المعنيين . كانت استعارة مطلقة ... ارجع الى كتابنا علم البيـان ص ٢٠٥ وما بعدها .

وقد وصل بين الجملتين (**فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين**) بالواو وعطفتا معا على قوله تعالى : (**اشتروا الضلالة بالهدى**) بالفاء ، وهذا العطف يشير الى سرعة الخسران ووقوعه عقب الشراء ، فبمجرد اشتراء الضلالة بالهدى تحقق الخسران المبين، فلم يحققوا ربحا ، بل لم يبق لهم رأس المال أصلا ..

فالذى يطلبه التجار من تجارتهم أمران : سلامة رأس المال ، والربح وهؤلاء قد أضاعوا الأمرين معا ، لأن رأس مالهم كان الهدى، ولم يبق لهم مع الضلالة ، وحيث لم يبق لهم رأس مال ، فكيف يوصفون بتحقيق ربح ؟ ولذا كان العطف بالفاء فى قوله : (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) مؤذنا بسرعة الخسران والبوار ، ووقوعهما مباشرة عقب اشتراء الضلالة بالهدى ..

(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون • صم بكم عمى فهم لا يرجعون) •

بعد أن كشفت الآيات السابقة عن أحوال المنافقين ، وجلت خصالهم ، وبينت ما طبعوا عليه من صفات ، عقب هنا بضرب المثل لهم ، زيادة فى الكشف عن خصالهم وأحوالهم ، وإبرازها فى معرض المحسوس المشاهد مبالغة فى البيان والإيضاح ..

فالفصل بين هذه الآية الكريمة (**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا**) وما تقدمها ، لكمال الاتصال ، لأنها منزلة مما قبلها منزلة عطف البيان ، اذ هى كاشفة وموضحة ومبينة ، بل بها زيادة فى الكشف والإيضاح والتبيين لما سبق ذكره من أحوال المنافقين ، فقد جلت هذه الأحوال وبينتها فى صورة محسوسة مشاهدة عن طريق ضرب المثل •

والمراد بالمثل : الحـال العجيبة ، أو الصفة الغريبة ، أو القصـة ذات الشان ،على سبيل الاستعارة ، كانه قيل : صفتهم الغريبة ، وحالهم العجيبـة الشان ، كحال رجـل استوقد نارا ، استعير لفظ (المثـل) لهـذه الحـال أو لتلك الصفة أو للقصة الغريبة العجيبة الشأن ..

ومجيء المثـل بهـذا المعنى كثير فى القـرآن الكريم والحـديث الشريف ، ولنقـرأ الآيات : « **ذلك مثلهم فى التـوراة ومثلهم فى الإنجيل كـزرع ... مثـل الجنـة التى وعـد المتقـون فيهـا أنهـار .... الله نـور السموات والأرض مثـل نـوره كمشكاة فيهـا مصـباح ..** »(٤٤) وفى الحديث (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعـلم كمثل غيث أصاب أرضـا ... مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيهـا ... مثـل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثـل قـوم استهموا على سفينة ..) فالمراد بالمثل فى مثل هذه الآيات والأحاديث: الصفة الغريبة ، أو الحـال العجيبـة ، على سبيل الاستعارة ..

مثـل الله عز وجل حـال المنافقين فى حيرتهم وتخبطهم وقلقهم واضطرابهم بحـال الذى استوقد نارا ليستضىء بهـا ، وما كاد ضـوء النـار يبـدو ويضىء له ما حوله ، حتى خمـد ، حيث ذهب الله بنورهم، فبقـوا متخبطين متحيرين ، فى ظلمات يعمهـون لا يبصرون .

والتشبيه فى الآية تشبيـه مركب ، اذ المراد تشبيه حـال المنافقين ومـا يدور بخلدهم من قلق ، ومـا يعتريهم من اضطراب ، وما يعيشون فيـه من حيرة وتخبط ، وتلك هيئة مركبة ، شبهت بهيئة أخرى ، وهى حـال المستوقد الذى أستوقد نارا ليستضىء بهـا ، فكان من شـأنه مـا وصـف الله عز وجـل ..

وعنـدما نمعن النظـر فى الصـياغة نجـد أن : التعبير بالفعـل

(٤٤) الآيات بالترتيب : الفتح : ٢٩ ، محمـد : ١٥ ، النور : ٣٥ .

(استوقد) يدل على شدة حاجته إلى النار ، وأنه متلهف لها باذل أقصى جهده للحصول عليها ، وهذا ينبىء بمدى خوفه وقلقه ، وإحاطة الظلام به ، وتطلعه إلى أدنى نار تكشف ما أحاط به من ظلام ، وتبث الطمأنة ، وتذهب الخوف ، ولذا وردت (نارا) نكرة للدلالة على التقليل ، فهو متلهف إلى نار قليلة تضىء له إضاءة ما ..

وقيل إن التنكير يدل على التعظيم ، لأن النار التى استوقدها المستوقد أضاءت ، والإضاءة أعم وأكثر إشعاعا من الإنارة ، ثم إنها قد أضاءت جميع الجهات ، حيث قال : (ما حوله) ليدل على أن الإضاءة ، قد أحاطت به ، وأضاءت جميع جاهته ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت النار عظيمة هائلة ...

وأرى أن هذا القول أولى بالقبول لتلاؤمه مع السياق ، ودلالته على المبالغة فى الأسى والتحسر الذى أصاب المستودق ، إذ بدت النار عظيمة ، أضاءت كل الكون من حوله ، ثم خمدت فجاة ، وذهب الله بها كلية ، مع حاجته الشديدة إليها ورغبته الملحة فى استبقائها ، وهذا مما يزيد تحسره ويضاعف أساه ..

والتعبير بلما فى قوله (**فلما أضاءت ما حوله**) يدل على سرعة الزوال ، فما كاد الضوء يبزغ حتى زا لوخبا ، وذهب الله به ، والنور قد سطع شديدا ، وبدد الظلام من كل جانب ، ولذا عبر عنه بقوله (أضاء) والإضاءة فرط الإنارة ، قال تعالى : « **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا** »(٤٥) وجعل الإضاءة تشمل جميع الجهات ، فقال (ما حوله) والحول يدل على الدوران والإطافة ، ومع ذلك فقد خبا الضوء وخمد ، وذهب الله به ذهابا تاما فور ظهوره فلم يبق للمستوقد أى نور ، وهذا ما يبعث الأسى والحسرة كما قلت .

---

(٤٥) سورة يونس آية : ٥ .

فالضياء بزغ شديدا عم كل الجهات ـ كما أوضحنا ـ واختفى سريعا اختفاء تاما ، على الرغم من شدة الاحتياج إليه ، ومما يصور الاختفاء التام قوله تعالى : (**ذهب الله بنورهم**) فالذهاب قد أسند إلى الله ، ثم قال : ذهب به ، ولم يقل : أذهبه ، و (ذهب به) أبلغ لإفادتها المصاحبة ، ولم يقل : ذهب الله بضوئهم ، بل (بنورهم) لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة ، ولو قيل : ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة دون أصل النور ، والغرض إزالة النور عنهم رأسا ، وطمسه ، أصلا ، مبالغة فى حلول الظلام ٠٠

وكذا قوله تعالى : « **وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** » فترك هنا بمعنى : جعل ، أى : صيرهم وجعلهم فى ظلمات ، لأنها إذا تعدت لمفعول واحد كانت بمعنى : طرحه وخلاه ، وإذا تعدت لمفعولين كانت متضمنة معنى التصيير والجعل ، قال عنترة :

فتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلة رأسه والمعصم(٤٦)

وما فى الآية من الثانى ، فهى مضمنة معنى التصيير والجعل ٠٠

وقد جمعت (ظلمات) ونكرت ووصفت بقوله : (لا يبصرون) وذلك للتهويل والإبهام ، فهى ظلمات مبهمة مهولة ، تراكم بعضها فوق بعض ، وأطبقت عليهم فاختطفت أبصارهم ، فصاروا لا يبصرون ٠

ومفعول (لا يبصرون) محذوف ، وهذا الحذف من قبيل الطرح الذى لا يلتفت إلى إخطاره بالبال ، وليس من قبيل المقدر المنوى ، وكأن الفعل صار غير متعد أصلا ، والمعنى : تراكمت عليهم الظلمات فاختطفت أبصارهم ، فلم يعودوا من أهل الإبصار ٠٠

---

(٤٦) جزر السباع : اللحم الذى تأكله لأنها تجزره بأنيابها ، والنوش : التناول السهل ، والمعصم : موضع السوار من الساعد ٠

وبهذا يتضح لنا كيف يولغ فى تصوير حلول الظلام بهم ، وذهاب الضيوء الذى لم يكد يرى حتى خبا وخمد ، وذهب الله به ، فصاروا فى ظلمات ، وصاروا لا يبصرون ..

وجواب (لما) فى قوله تعالى : **(فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم)** إما أن يكون قوله (ذهب الله بنورهم) ، وإما أن يكون محذوفا ، وتقديره : فلما أضاءت ما حوله خبت وخمدت ، فصاروا فى ظلام يتخبطون متحسرين على فوت الضوء الذى تعبوا فى استيقاده ، وعندئذ يكون قوله (ذهب الله بنورهم) جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، وكأن سائلا سال : لم خمدت النار فجاة ، وحل الظلام سريعا ، بعد ظهور الضوء الذى كدوا فى استخراجه ؟ فيأتى الجواب : لأن الله ذهب بنورهم ..

ويصح أن يكون الفصل لكمال الاتصال ، على أن جملة (ذهب الله بنورهم) مبينة لجملة التمثيل ، منزلة منها منزلة البدل ..

والتشبيه ـ كما ذكرت ـ تشبيه مركب ، مثلت فيه حال المنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب ، وحيرة وتخبط ، يلوح لهم نور الإيمان حينا عندما يجرون كلمة الإسلام على السنتهم ، ولكن النور سرعان ما يذهب لتمكن الكفر من قلوبهم ، مثلت هذه الحال العجيبة بحال المستوقد الذى كد فى استيقاد النار لحاجته إلى الضوء ، وما كاد الضوء يبدو ويلوح له حتى ذهب ، فصار فى ظلام لا يبصر ، ووجه الشبه هو الوقوع في حيرة الحرمان والخيبة بعد ظهور تباشير الرجاء .

وفصل قوله تعالى : **(صم بكم عمى)** عما قبله للاستئناف البيانى ، وكأن سائلا يسال عند سماع قوله تعالى : **(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا)** ، فقال : لم صاروا فى هذه الحيرة وذاك الاضطراب؟

ولـماذا كان تخبطهم فى الضلال حتى شبهوا بما شبهوا به ؟ فجاء الجواب : لأنهم سدوا عن الإصاخة للحق مسامعهم ، وأبوا أن ينطقوا به السنتهم ، وأن يبصروه بأعينهم ، وكان وسائل إدراكهم قد إيفت – كما يقول الزمخشرى – أى : أصيبت بآفة ، وتعطلت وانتقض بناؤها ، فصاروا صما بكما عميا ..

والآية من قبيل التشبيه البليغ ، وهو ما حذفت أداته ووجهه كقولهم : هم ليوث ، وهم بحور ، ولا يقال : إن المشبه فيها محذوف ، قد طوى عن الجملة ، لأن حذفه على نية التقدير ، فهو فى حكم المنطوق به ، ونظيره قول عمران بن حطان يخاطب الحجاج :

أسد على وفى الحروب نعامة

فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى

بل كان قلبك فى جناحى طائر(٤٧)

والتقدير : أنت أسد على ونعامة فى الوغى .

وقد خلط بعض العلماء هذا التشبيه البليغ بالاستعارة ، فأدخلوه فيها ، وعدوه منها ، نظرا لما يفيده من المبالغة ، ولكن المحققين أبقوه فى دائرة التشبيه ، إذ الاستعارة ، إنما تطلق عندما يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلا خلوا منه ، كقولك : رأيت ليوثا تحارب وبحورا تتصدق(٤٨) .

---

(٤٧) فتخاء : مسترخية الجناحين ، وهى صفة لازمة للنعامة ، وغزالة : هى امرأة شبيب الخارجى ، ويقال : إنها دخلت الكوفة فى ثلاثين فارسا ، وفيها ثلاثون ألف مقاتل ، فصلت الفجر ، وقرأت البقرة .

(٤٨) ارجع إلى كتابنا : دراسات بلاغية ٩٧ .

وقوله تعـالى : (**فهم لا يرجعـون**) تقدم المسند إليـه (هم) على خبره الفعـلى ، فأفاد توكيد نفى الرجـوع ، لأنهم قد طبع على قلوبهم ، وصـاروا صما بكما عميـا ، فأنى لهم الرجـوع إلى الهدى وقد باعـوه واشـتروا الضـلالة ، وأنى لهم التخلى عن الضـلال وهم فيـه يتخبطون لا يدرون أيتقدمون أم يتأخـرون ..

« أو كصيب من السماء فيـه ظلمـات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصـواعق حـذر المـوت والله محيط بالكافرين . يـكاد البرق يخطف أبصـارهم كلمـا أضـاء لهم مشـوا فيـه وإذا أظـلم عليهم قاموا ولو شـاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير »

ثنى - عز وجـل - بتمثيل آخـر فى شأن المنافقين ، ليكون كشـفا لحـالهم بعد كشف ، وإيضـاحا بعد إيضـاح ، لأن المقـام مقام تفصيل ، يقتضى الإشباع ، للكشف عن خصـال هؤلاء المنافقين ، وتجلية حقيقـة أمـرهم ..

وقد أوثر فى عطف أحـد التمثيلين على الآخـر التعبير بالحرف (أو) دون الواو ، للدلالة على صحـة التشبيه بكل واحـدة من القصتين منفـردة ، وبهما معـا ، ولو عطف بالواو لربما أوهم صحـة التشبيه بمجموعهما فقط ، دون التشبيه بكل واحدة منهما منفـردة ، فالعطف بـ (أو) جعـل القصـتين سواء فى استقلال كل واحدة منهما بوجـه التمثيـل ، فبأيتهما مثلت فأنت مصيب ، وإن مثلت بهما جميعـا فأنت مصيب أيضـا(٤٩) .

والتمثيل هنا أيضـا من قبيل التمثيلات المركبة كالتمثيل السابق ،

---

(٤٩) ومرجع ذلك إلى أن (الواو) لمطلق الجمـع ، و (أو) للدلالة على التسـوية .

لأن المـراد تشبيه هيئة حاصـلة من مجموع أشياء ، قد تضامت وامتزجت حتى صـارت شيئا واحدا ، بهيئـة أخـرى مثلهـا ، فقد مثلت حـالة المنافقين وهم يتخبطون فى الضـلال ، وقد أصـابتهم الحيرة والدهشة ، واشتد عليهم الأمـر ، بحـال من يكابد فى ظلمـة الليـل وقد أطفئت ناره ، بعد إيقـادها ، ثم مثلت هنا فى هـذا التشبيه بحال من أخذتهم السماء فى الليـلة المظلمـة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق ٠

وفى إيثار التعبير بكلمة (صيب) دون المطر أو الوابل ، وتنكيرها دلالة على التهويل ، لأنه أريد نوع من المطـر شديد هائل يصيبهم ، وكأن لفظ (صيب) يصـور صـورة الانصـباب عليهم تهويلا وتفظيعـا ، ثم ذكـر جهـة الانصباب (من السـماء) والصيب لا يكون إلا من جهتهـا مبالغـة فى التهـويل ، كما فى قـوله تعـالى : « **فخـر عليهم السقف من فـوقهم** »(٥٠) وخـرور السقف لا يكون إلا من فوق ٠٠

ومجىء لفظ (السـماء) معـرفة يدل على أن الصيب يصيبهم من غمام مطبـق ، آخـذ بآفاق السماء ، وليس يتصوب من أفق واحـد من بين سـائر الآفاق ، لأن كل أفق من آفاقهـا سماء ، فالصيب يطبـق عليهم من جميـع الآفـاق ٠٠

ثم نـكرت هـذه الألفـاظ (ظلمـات ورعـد وبرق) للدلالة على أنها أنواع لا تدرك ولا يحـاط بها ، وكذلك جمعت الظلمـات للدلالة على تكاثفها وتراكمها ، لأنها ظلمـات تكونت من ظلمـة الليل ، وظلمة إظلال الغمـام ، وظلمـة تكاثف المطـر وانتساجه بتتابع القطـر ، فهى ظلمات تراكم بعضها فوق بعض ، ولذا جمـع لفظ (ظلمـات) وأفـرد لفظى (رعـد وبرق) إذ ليس فيهمـا ما فى الظلمـات من التكاثف والتراكم والتداخـل ٠

---

(٥٠) النحـل : ٢٦ ٠

وهكذا يتضح لك ما فى التعبير من مبـالغات فى التصـوير ، تبعث الهول ، وتثير الرعب والخوف ، ولا يجـد المنافقون ما يتقـون به هذه الأهـوال إلا أن يجعـلوا أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت .

قالوا : إن المـراد بقوله تعـالى : (أو كصيب) : أو كمثـل ذوى صيب ، فحذف المضـاف ، والذى أحـوج إلى هـذا التقـدير أن المعنى على تصـوير حال المنـافقين بحال قـوم أخـذتهم السماء على الصـفة المذكـورة ، فلقوا منهـا ما لقـوا .

وهـذا يختلف عن تشبيه أعمال الكفار فى قوله تعـالى : « **والذين كفـروا أعمـالهم كسـراب بقيعـة يحسـبه الظمـآن ماء حتى إذا جاءه لم يجـده شيئا ووجـد الله عنـده فوفـاه حسـابه والله سريع الحساب . أو كظلمـات فى بحـــر لجى يغشـاه مـوج من فـوقه مـوج من فـوقه سحـاب ...** »(٥١) .

لأن التشبيه هنا فى سـورة (النـور) تشبيه لأعمال الكفار ، ولذا لم يحتج إلى تقـدير فى التشبيه الثـانى (أو كظلمـات) ، أما التشبيه فى سـورة (البقـرة) ، فهو تشبيه لأحـوال المنافقين بحال من أخذتهم السماء - كما ذكـرت - ولذا احتـاج المعنى إلى تقدير مضاف فى التشبيه الثـانى (أو كصيب) .

وفصـل قـوله تعـالى : (**يجعـلون أصـابعهم فى آذانهم**) عما قبـله لشبه كمال الاتصـال المسمى بالاستئناف البيـانى ، لأنه لمـا ذكـر ما يؤذن بالشدة والهـول من الظلمـات والرعد والبرق ، فكأن قائلا سأل : فكيف كانت حالهم مع هـذه الأهوال ؟ فجـاء الجـواب : (**يجعـلون أصابعهم فى آذانهم**) .

---

(٥١) النـور : ٣٩ ، ٤٠ .

وفى (أصـابعهم) مجـاز مرسل علاقته الكلية حيث أطلق الأصابع وأراد الأنامـل ، وذلك للمبالغـة فى سـد الآذان خـوفا ورعبا ، ومن المعـلوم أن الذى يسد الأذن أصبع خاصـة ، هى السبابة ، ولكنه عـدل عنها وذكـر الاسـم العـام (الأصـابع) لغـرضين :

الأول : أن السبابة فعـالة من السب ، فكان اجتنابهـا أولى بآداب القـرآن ، ولذا فقد استبشعوها وكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة ..

الثـانى : أنه لا يلزم أن يسدوا مسـامعهم فى تلك الحال بالسبابة ، لأنهم فى حال حـيرة ودهشـة ، فأى أصبع اتفق لهم أن يسـدوا بهـا فعـلوا دون مراعاة المعتاد فى ذلك ، إذ المقـام مقام حيرة ودهشة .

وفى ذكـر (الصواعق) والحذر من الموت ، فى قوله تعـالى : **(من الصواعق حـذر المـوت)** تعليـلا لجعـل الأصـابع فى الآذان ، مما يدل على شدة الهول وفـرط الرعب والخوف ..

وقوله تعـالى : **(والله محيط بالكافـرين)** جملة اعتراضية الغرض منهـا : التنبيه على أن الحذر من الموت لا يفيد ، لأن الله محيط بهم ، وقد وضـع الاسم الظاهر (الكافرين) موضـع الضمير ، إذ الأصـل : والله محيط بهم ، وذلك للدلالة على أن أصحاب الصيب كفار ، فيظهـر عندئذ استحقاقهم ما وصف من شدة الأهـوال وفرط الرعب ، لأن الإهلاك الناشىء عن السخط أشد ..

وجعـل بعضهم هذه الجمـلة الاعتراضية من أحوال المشبه ، على أن المـراد بالكافرين : المنافقون ، وهى تدل على أنه لا مدفـع لهم من عـذاب الله فى الدنيـا والآخـرة ، وقد وسطت بين أحـوال المشـبه به تنبيها على شدة الاتصال بينهما ، ودلالة على فرط الاهتمام بشأن المشبه .

وإحـاطة الله تعـالى بالكافرين مجـاز ، إما استعارة تبعيـة فى

لفظ (محيط) حيث شبه شمول قدرته تعـالى إياهم ، بإحاطة المحيط بما أحاط به ، ووجـه الشبه امتنـاع الفوت فى كل ، واشتق من الإحاطة محيط بمعنى : شـامل القدرة ..

وإما استعارة تمثيلية حيث شبهت حاله تعـالى معهم ، وقـدرته عليهم ، بحال المحيط مع المحـاط به ، أى : شبه هيئـة منتزعة من عدة أمـور بأخـرى مثلها ، واستعيرت هيئة المشبه به للمشبه على سبيـل الاستعارة التمثيليـة ..

وفصـل قوله تعـالى : **(يكاد البرق يخطف أبصـارهم)** عما قبله للاستئناف البيانى، وكأن سائلايسأل : فكيف كانت حالهم مع هذه الأهوال، ومع مثـل ذلك البرق ؟ فأجيب : **(يكاد البرق يخطف أبصارهم)** .

وكذا الفصـل بين جملتى (يكاد البرق يخطف أبصـارهم ، كلمـا أضـاء لهم مشـوا فيـه ...) لأن الأولى منهما تضمنت سؤالا فحواه : كيف يصنعون فى حال خفوق البرق وفى حال اختفائه ؟ فأجيب : **(كلما أضـاء لهم مشـوا فيـه وإذا أظلم عليهم قـاموا ...)**.

ووراء التعبير بكلمتى (كلمـا) و (قاموا) معنى لطيف وتصوير دقيـق ، فمع أن البرق يكاد يخطف أبصـارهم إلا أنهم يحاولون ، ولديهم رغبة قوية فى التخلص من هذا الموقف الصعب ، فكلما أضاء البرق لهم ممشى مشوا فيه مع خطورة المشى ، ولذا لم يقل : سعوا فيه ، أو عـدوا فيـه ، لأنهم يخطون فى حـذر من تخطف أبصـارهم ، والسعى والعدو لا يناسب كل منهمـا مقـام الحذر ، وإذا أظـلم عليهم قاموا واستعدوا للانطـلاقة عندما تحين الفرصـة ، ففى القيـام تأهب وتهيؤ ..

والفعـل (أضـاء) إما متعد حذف مفعوله ، والتقدير : كلما أضاء لهم ممشى مشـوا فيـه ، وإما لازم بمعنى (لمـع) وكذا الفعل (أظلم) إما متعد والتقدير : أظلم عليهم مكانهم ، وإما غير متعد وهو الظاهر ..

واستخدام (كلما) مع الإضاءة يشعر بحرصهم على المشى ، فكلما صادفوا فرصة انتهزوها ، وليس كذلك التوقف عند الإظلام ، ولذا استخدم معه (إذا) ثم قال (قاموا) فدل على تأهبهم وتهيئهم للوثبة الجديدة عندما تحين فرصتها لأن (قام) تدل على الوقوف والثبوت مع تحفز وتأهب كما يقال : قامت الحرب على ساقها ، وأقام الصلاة ، وقام بهذا الأمر وقام عليه ٠

وفى قوله تعالى : **(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم)** حذف مفعول المشيئة لدلالة جواب الشرط عليه ، والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ، والسر البلاغى لهذا الحذف هو البيان بعد الإبهام ، وللبيان بعد الإبهام أثر طيب ووقع فى النفس ، لأن الشىء عندما يبهم تتطلع النفس وتتشوق إلى معرفته ، فعندما يجىء البيان يقع فى النفس موقعه ، إذ جاءها وهى متطلعة إليه ، مترقبة له ٠٠

وقد كثر حذف مفعول المشيئة والإرادة ، فلا يكاد يذكر إلا إذا كان غريبا ، كما فى قوله تعالى : « **لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين** »(٥٢) ، وقوله عز وجل : « **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء** »(٥٣) ، وكما فى قول أبى الهندام الخزاعى فى الرثاء :

قضى وطرا منك الحبيب المودع
وحل الذى لا يستطاع فيدفع

ولو شئت ان أبكى دما لبكيته
عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

---

(٥٢) الأنبياء : ١٧ ٠
(٥٣) الزمر : ٤ ٠

فإن اتخاذ اللهو والولد وبكاء الدم مما يستغرب ، ولذا لزم ذكـره والتصـريح به ، اعتناء بشـأنه ، ولا يكتفى فيـه بدلالة الجواب عليه ، لذهاب الوهم إلى غيره، بناء على استبعاد تعلق الفعل به عندئذ لغرابته..

وقد مـر بنا السـر البلاغى وراء إفـراد السمع وجمـع الأبصـار عند حديثنا عن الآية الكريمة « **ختم الله على قـلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصـارهم غشـاوة** »(٥٤) فعد إليـه هناك ..

وختام الآية الكريمة بقوله تعـالى : (**إن الله على كل شىء قـدير**) يتناسب مع ما ذكـر فى الآيات من تصـوير لحال المعاندين ، وما يصيبهم من شدة الهـول ، وفـرط الرعب ، لكفـرهم وعنادهم ، وهـذا ما يعرف فى البديع بتشـابه الأطـراف ، وقد وضـع الاسم الظاهر (لفظ الجلالة) موضـع الضمير ، إذ الأصـل أن يقال : إنه على كل شىء قـدير ، لتقدم ذكـره عز وجل فى قوله : (**ولو شـاء الله لذهب بسمعهم وأبصـارهم**) والسر البلاغى وراء هـذا العدول تربية المهـابة ، وإبراز القدرة بالإسناد إلى صـريح الاسم الجليـل ، إذ ليس الإسناد إلى الضمير كالإسناد إلى الاسم الظاهـر .

هـذا وقد ذكـر الزمخشرى - رحمـه الله - أن التشبيـه الثـانى (أو كصيب) أبلغ من التشبيه الأول (**مثلهم كمثـل الذى استوقد نارا**) لأنه أدل على فـرط الحيرة وشدة الأمـر وفظاعته ، ولذا أخـر ، وهم يتدرجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ(٥٥) ..

ومرجع ذلك إلى تضاعف العنـاصر ، التى تصـور الحيرة والشدة ، من الصيب والظلمـات والرعد ، والبرق الذى يكاد يخطف الأبصـار ،

---

(٥٤) البقـرة : ٧ .
(٥٥) الكشاف ٢١٣/١ .

والصـواعق المخيفـة التى تجعلهم يبالغـون فى سد مسـامعهم خـوفا من المـوت ٠

وعندما نقول : إن هذا التشبيه أبلغ من ذاك ، فإننا نريد : المبالغة : أى : أن كلمـة (أبلغ) مأخوذة من المبالغـة ، لا من البلاغة ، والمقـام هو الذى يقتضى تلك المبـالغة ـ وكما قال الزمخشرى : هم يتدرجون فى مثـل هذا من الأهون إلى الأغلظ ـ حيث اقتضى المقـام ذلك التدرج ٠

وعندما نمعن النظـر فى عناصر الصـورة الثانية (أو كصيب) نراها تحمـل الخير والشر ، فالصيب فيه الرعد والبرق ، والرعد والبرق قـد يكون خيرا ، ويسفر عنـه الغيث النافـع ، وقد يكون شرا وصواعق مهلكة ، ولذا كان العـربى يعد سبعين برقة وينتجع فلا يخطىء الغيث والكلأ ، وإلى هـذا أشـار المتنبى بقوله :

وقـد أرد الميـاه بغـير هــاد   سـوى عـدى لهـا برق الغمام

والذين أعرضـوا عن الإيمان ، وظلوا فى ظلمـات الحيرة يهلكون أنفسهم ، والذى يهلكهم كان فيـه النفـع والخير ، لو تنبهوا له وحصلوه وحرصوا عليه ، ولكنهم اشـتروا الضـلالة بالهدى الذى كان بين يديهم ، فما ربحت تجـارتهم وما كانوا مهتدين ٠

* * *

(٢)

قــال تعــالى : « يايهــا الذين آمنــوا لا تاكـلـوا الــربا أضــعافا مضــاعفة واتقــوا الله لعلــكم تفلحــون • واتقــوا النــار التى أعــدت للكافــرين • وأطيعــوا الله والرســول لعلــكم ترحمــون • وسارعوا إلى مغفــرة من ربكم وجنــة عرضها السموات والأرض اعــدت للمتقــين • الذين ينفقــون فى الســراء والضــراء والكاظمين الغيظ والعــافين عن النــاس والله يحب المحســنين • والذين إذا فعــلوا فاحشــة أو ظلمــوا أنفسهم ذكــروا الله فاستغفــروا لذنوبهم ومن يغفــر الذنوب إلا الله ولم يصــروا على ما فعــلوا وهم يعلمــون • أولئــك جــزاؤهم مغفــرة من ربهم وجنــات تجــرى من تحتهــا الأنهــار خــالدين فيهــا ونعم أجــر العــاملين • قد خلت من قبلكم سنن فســيروا فى الأرض فانظــروا كيف كان عاقبة المكذبين • هــذا بيــان للناس وهــدى وموعظــة للمتقــين • ولا تهنــوا ولا تحــزنوا وأنتم الأعــلون إن كنتم مؤمنــين • إن يمسســكم قــرح فقد مس القــوم قــرح مثــله وتلك الأيام نداولهــا بين الناس وليعلم الله الذين آمنــوا ويتخــذ منــكم شهداء والله لا يحب الظالمين • وليمحص الله الذين آمنــوا ويمحــق الكافــرين • أم حســبتم أن تدخــلوا الجنــة ولمــا يعــلم الله الذين جــاهدوا منــكم ويعــلم الصــابرين • ولقد كنتم تمنــون الموت من قبــل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون • وما محمد إلا رســول قد خلت من قبــله الرســل أفإن مــات أو قتــل انقلبتم على أعقــابكم ومن ينقلب على عقبيــه فلن يضــر الله شيئــا وسيجــزى الله الشــاكرين • ومــا كان لنفــس أن تمــوت إلا بإذن الله كتــابا مؤجــــلا ومن يرد ثواب الدنيــا نؤته منهــا ومن يرد ثواب الآخــرة نؤته منهــا وسنجــزى الشــاكرين »(١) •

---

(١) آل عمــران : ١٣٠ ـ ١٤٥ •

بدأت هـذه الآيات الـكريمة بالنـداء للتنبيـه وإيقـاظ المشـاعر والأحاسيس ، وقد أوثر حـرف النداء (يا) الموضوع لنداء البعيـد ، والله عز وجل أقـرب إلى عبـاده من حبل الوريد ، للإيذان بأن الخطاب الذى يتـلوه معنى به جـدا ، فإن نداء القـريب قد وضـع له (أى) والهمـزة ، فإذا استخدم فى ندائه (يا) فقد يكون ذلك للتنبيـه على أنه قد سها وغفـل ، فنزل لغفلتـه منزلة البعيد ، وقد يكون فطنا غير غافل ، ولكن الأمـر الآتى بعد النداء من الأمـور المهمة المعنى بهـا ، فتستخدم (يا) لتنبـه إلى ذلك وتلفت إليـه ، كما فى الآية الكريمة ، وقد كثر فى القـرآن الكريم النداء على هـذه الطـريقة ، لأن كل ما نادى الله له عبـاده من أوامـر ونواه ، وعظـات وزواجر ، ووعد ووعيد ، ونحو ذلك مما أنطق به كتابه ، أمور عظام ، ومعـان ينبغى أن يتيقظوا لهـا ، ويميـلوا بقلوبهم وبصـائرهم إليهـا (٢) ..

و (أى) : وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام ، وهو الذى يعمل فيـه حـرف النداء والاسم التـابع له صفتـه ، وهو لا ينفـك عنهـا ، ولا يستقل بنفسـه ، لمـا فيه من إبهـام تجليـه هـذه الصفة ، وفى هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التوكيد والتنبيه ..

و (هـا) كلمـة تنبيـه مقحمـة بين الصفـة وموصوفها ، وهى تقـوى حـرف النداء (يا) لتقـاربهما فى المعنى ، فحـرف النداء فيه تنبيه وإيقاظ للمدعـو ، وحـرف التنبيـه (ها) مما يقوى ذلك الإيقاظ ويؤكـده .

كما أنها تقـع عوضـا عما يستحقه (أى) فإن (أيا) حقـه أن يضـاف ، كما فى قوله تعـالى : « **ثم لننزعن من كل شيعـة أيهم أشـد على الرحمـن عتيـا** »(٣) .

---

(٢) انظر الكشاف ١/٢٢٦ .
(٣) مـريم : ٦٩ .

وكما فى قول النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

أو تنوين يقوم مقام المضاف إليه ، كما فى قوله تعالى : « **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** »(٤) ولا مجال هنا للتنوين بسبب بناء (أى) للنداء ، فجعلت كلمة التنبيه (ها) المناسبة للنداء عوضا عن المضاف إليه ..

وبعد أن نبه النداء وأيقظ المشاعر وهيأ النفوس للتلقى : توالى النهى والأمر : « لا تأكلوا الربا .. واتقوا الله ... واتقوا النار .. وأطيعوا الله والرسول ... وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة .. » والنفوس عندما تتلقى هذه الأوامر والنواهى ، وهى مهيأة يقظة يكون ذلك أدعى للقبول والإجابة وسرعة الامتثال ..

وفى تقديم النهى عن الربا على تلك الأوامر المذكورة ، إيذان بشدة خطره ، ومبالغة فى تحريمه وحظره ، لأنه كان شائعا إذ ذاك ، ولذا خص بالنهى هنا دون غيره من سائر ما نهى عنه فى مواضع أخرى من آيات الذكر الحكيم ..

وقد أوثر فى النهى عن الربا التعبير بالأكل : (لا تأكلوا الربا) دون غيره من أنواع الأخذ والتناول ، ووجوه التصرف الأخرى ، لأن الأكل أكثر وجوه الإنفاق ، كما أنه الصفة المشتركة بين الإنسان والحيوان ، ولكن الحيوان يأكل كل ما يقع عليه دون نظر إلى كونه من حقه أو من حق غيره ، وأما الإنسان فلا يأكل إلا ما كان من حقه ، فإذا ما انهدم هذا الفرق وصار الإنسان يأكل ما هو له ، وما هو من حق غيره ، فقد تدنى إلى مرتبة الحيوان ، وصار كالأنعام التى

---

(٤) الإسراء : ١١٠ .

فقدت التمييز ، ولذا كان فى التعبير بالأكل دون غيره زيادة فى التشنيع والتقبيح ..

ونجد ذلك شائعا فى آيات الذكر الحكيم التى تناولت تحريم الاعتداء على أموال الغير ، ولنقرأ (**ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل .. وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم ... إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ... الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ...** »(٥) .

فالمراد النهى عن الاعتداء على أموال الغير بأى وجه من وجوه الاعتداء ، وقد عبر بالأكل خاصة للدلالة على التفظيع والتنفير ، وزيادة فى التشنيع والتقبيح ، إذ العربي يتذمم بملء البطن ، وكثرة الأكل ، ويعد ذلك من البهيمية ..

وقد قيد النهى عن الربا بكونه أضعافا مضاعفة ،ولا يعنى تقييد النهى عن أكل الربا بذلك القيد (أضعافا مضاعفة) أن أصل الربا غير منهى عنه ، وأنه اذا لم يكن أضعافا مضاعفة جاز أكله ، وانما المراد النهى المطلق ، وقد جيء بالقيد للتنفير والدلالة على التبشيع ، وهذا شائع فى كلامهم ، يقولون : لا تضيع حق جارك الصالح ، لا تضيع دينك بكسرة خبز ، وهم لا يريدون بذلك اباحة تضييع حق الجار غير الصالح ، وجواز إضاعة الدين إذا غلا ثمنه ، وإنما يريدون حث المخاطب على التمسك بدينه ، وحفظ حقوق جاره مطلقا ، وقد جيء بالقيد ليكون المخاطب أكثر استجابة وأسرع انقيادا ، لما فى التقييد من تقبيح يدعو إلى النفور والابتعاد وسرعة الاستجابة ..

---

(٥) الآيات بالترتيب : البقرة ١٨٨ ، النساء ٢ ، ١٠ ، البقرة ٢٧٥ .

ولنتأمل قوله تعـالى : « **ولا تكرهـوافتياتكم على البغـاء إن أردن تحصـنا ٠٠** »(٦) ٠

وقـوله عـز وجـل : « **وآتـوا اليتـامى أمـوالهم ولا تتبـدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا** »(٧)

وقوله جـل وعـلا « **فإن آنسـتم منهم رشـدا فادفعـوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ٠٠** »(٨) ٠

وقوله عـز من قائل : « **وإذا حضر القسـمة أولوا القـربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منـه وقولوا لهم قـولا معروفا** »(٩) ٠

نجد أن هـذه الآيات قد قيد النهى فيها ـ والأمر فى الآية الأخيرةـ بقيـد ، والغـاية المقصـودة من القيـد التشـنيع والتنفـير ، وليس المراد وقف النهى والأمر على القيـد الذى قيـد به الفعل المنهى عنـه ، أو المأمـور به ٠

ففى آية سـورة النور ، عبر بالإكراه (لا تكرهـوا) والمراد النهى عن البغـاء سـواء أكان عن طريق الإكـراه للفتيات أو بإقبالهن طواعية، ثم جيء بهـذا القيد (إن أردن تحصـنا) والفتـاة لا تكره على البغـاء إلا عنـد ارادتهـا التحصن والتعفف ، فالقيد تأكيد للإكراه المنهى عنه ، وفيـه مزيد من التفظيع والتنفير ، وإبراز للصـورة فى أبشع صورها ، فتـاة تتعفف وتتحصن ، وسيد يكرهها على البغـاء ، صورة تستبشعها النفوس المنـة وتأباها النفس الكريمة ، فتمتثل وتسرع بالإجـابة ، وذلك هو المقصـود والمرجو من التقييد ٠٠

المؤمنة

---

(٦) النـور : ٣٣ ٠
(٧) النسـاء : ٢ ٠
(٨) النسـاء : ٦
(٩) النسـاء : ٨ ٠

وقل مثـل هذا القول فى تقييـد النهى عن أكل أموال اليتـامى بقوله تعـالى « **إلى أمـوالكم ... إسرافا وبدارا أن يكبروا** » وفى تقييد الأمـر بالعطـاء وقول المعروف فى قوله : (فارزقوهم منـه وقولوا لهم قولا معروفا) بحضـور القسمة (وإذا حضر القسمة) فهم يعطون ويقال لهم المعروف سـواء حضروا القسمة أو لم يحضروا ، ولكن التقييـد بالحضور فيـه حث للوارث على عطائهم ودفع قوى له لترضيتهم.. (١٠)

عرفنا أن أسـلوب النـداء فى الآية الكريمة (**يأيهـا الذين آمنوا**) قد نبـه وأيقظ ، وهيأ الأنفس لتلقى ما يلقى إليهـا من أمور مهمـة ، وقد جـاء بعـد هذا التنبيـه الموصول وصلته (الذين آمنـوا) فجـلى مـا فى (أى) من إبهـام وأوضحه ـ كما ذكرنا ـ وللإيضاح بعد الإبهام أثر ووقع فى النفس ، إذ فيه توكيد وتقرير للمعنى ..

كما أن وسمهم بالإيمان ونداءهم به ، فيه تذكير لهم بأصـل العقيدة وحث لهم على أن يتمسكوا بهـا ، ويحرصوا على تحصيل مـا يحـقق لهم ذلك ، ويجعلهم له أهـلا ، وعنـدئذ يقبلون على ما يلـقى إليهم ويجدون فى تحصيله وتحقيقه ...

وبعـد أن هيئت النفوس هـذه التهيئة ، وكان مـا رأيت من حث وإيقـاظ وتنبيـه ، وأصبحت النفوس مهيأة للإصغاء ومتطلعة لمـا سيلقى إليهـا ، توالت هـذه الأسـاليب : (**لا تأكلوا الربا أضـعافا مضـاعفة واتقـوا الله لعلكم تفلحـون ، واتقـوا النـار التى أعـدت للكافرين ، وأطيعـوا الله والرسـول لعلكم ترحمون ، وسـارعوا إلى مغفـرة من ربكم وجنـة ..**) وهى أسـاليب إنشـائية ـ كما ترى ـ بدأت بالنهى (لا تأكـلوا) ثم عطفت عليـه تلك الأوامـر (اتقـوا الله ... اتقـوا النـار ... أطيعوا الله والرسـول ... سـارعوا ...) فالوصـل بين

---

(١٠) ارجع إلى علم المعـانى جـ ٢ ص ١١٠ .

هذه الجمل للتوسط بين الكمالين ، مع عدم المانع من الوصل ، ووجود المناسبة المسوغة له ، حيث اتفقت فى كونها إنشائية لفظا ومعنى ..

وقد اقترن الرجاء بالأمر فى قوله تعالى : **(واتقوا الله لعلكم تفلحون)** . وفى قوله عز وجل : **(وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون)**

فلعل موضوعة للترجى أو للإشفاق ، بمعنى أنها موضوعة لإنشاء توقع أمر مرغوب فيه أو مرهوب منه . فالأول الترجى كقولك : لعل الله يرحمنا ، والثانى الإشفاق كقولك : لعل الساعة آتية ..

ولعل فى الآيتين للترجى ، واقتران الرجاء بالأمر فى الموضعين يفيد أن المؤمن ينبغى أن يكون دائما بين الرجاء والخوف ، يخضع لأمر الله ويستجيب له ، ويحذر المخالفة ، فيتجنب النهى ، وهو فى نفس الوقت يطمع فى كرم الله ، فيرجو الفلاح ، ويرجو رحمة ربه ..

وقد فصل بين جملتى : (اتقوا الله ، لعلكم تفلحون) وكذا بين جملتى (أطيعوا الله والرسول ، لعلكم ترحمون) للاستئناف البيانى المسمى بشبه كمال الاتصال ، حيث تضمنت الجملة الأولى فى كل منهما سؤالا ووقعت الثانية جوابا له ، وكأن سائلا سأل : لم يتق المؤمن ربه ، ويطيع الله ورسوله ؟ ما جزاؤه ؟ وما الذى يرجوه ؟ فجاء الجواب : لعلكم تفلحون .. لعلكم ترحمون ..

ووصفت النار بقوله عز وجل : **(التى أعدت للكافرين)** للمبالغة فى التخويف والتحذير ، وقد قالوا : هذه أخوف آية فى القرآن ، حيث توعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه(١١) .

---

(١١) انظر الكشاف جـ ١ ص ٤٦٣ .

والتعبير بالفعل الماضى (أعـدت) يدل على أن النـار مخلوقة ومعدة للكفـار منذ قديم ، وكذلك الجنة ، كما سيأتى فى قوله تعـالى : **(وجنـة عرضها السموات والأرض أعـدت للمتقين)** .

وحذف الفاعل فى قوله تعالى : (**أعدت للكافرين) لوضوحه والعلم** به ، كما يدل هـذا الحذف وبناء الفعل للمفعول على تهـويل العـذاب وتفخيمه ، وينبىء بأن النار قد أعد فيها من صنوف العذاب مالا يحيط به الوصف ، ومـا يذهل أمامه العقـل ، فيشغل عمن أعـده ، ولا يتطلع إلى معرفته ، وكذا القول فى حذف الفاعل ، وبنـاء الفعل للمفعول فى قوله : (أعدت للمتقين) فهو يدل على التعظيم والتفخيم ، وينبىء بأن الجنـة قـد أعد فيها للمؤمنين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سـمعت ولا خطـر على قلب بشر ، فالمخاطب يشغله ذلك النعيم ، ويأخذه فلا يسال عمن أعـده ، ولا يشغل به ..

وفى قوله تعـالى : (**وسـارعوا إلى مغفـرة من ربـكم وجنـة عرضـها السـموات والأرض**) عبر بالفعل (سـارع)حثا على الإقبال والمبادرة والمنافسة « **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** »(١٢) فليس المراد مجرد الإسراع ~~الجنة ذاتها ، إلى تحصيل أسبابهما ، وفى هذا من المبالغة~~ والإقبـال ، وإنمـا المـراد المنافسـة فى تحقيـق مـا أمـروا بـه وتحصيله ، وكأن المعنى : فليسـارع بعضـكم بعضا إلى ذلك الخـير وليسابق بعضكم بعضا إلى تحصيله والفوز به ..

والمسارعة المأمـور بها مسـارعة إلى تحصـيل أسباب المغفـرة ، وأسـباب الفوز بالجنة من الإيمان والأعمال الصـالحة ، فالمعنى على حـذف مضـاف ، والتقدير : سارعوا إلى أسبابهما ، وفى هـذا الحذف حث على المبادرة والامتثال ، فهو يجعل المسارعة إلى مغفـرة الله ، وإلى

(١٢) المطففين : ٢٦ .

الجنــة ذاتهــا ، لا إلى تحصــيل أسبابهما ، وفى هــذا من المبالغــة فى الحث على الامتثال ما فيه ..

ونكرت كل من المغفرة والجنــة فى قوله : (إلى مغفــرة من ربكم وجنــة) للدلالة على التعظيم ، ويؤكد هــذا المعنى – معنى التعظيم – وصف كل منهما بمــا وصفت به ، فقــد وصفت المغفرة بأنها من الــرب (من ربكم) وفى ذكر معنى الربوبيــة وإضافتها إلى المخاطبين إظهــار لمزيــد اللطف بهم ، والتجــاوز عن سـيئات التائبين ، وغفران ذنوبهم كما وصفت الجنــة بقوله تعالى : (**عرضــها الســـموات والأرض**) ، فهذان الوصــفان يــؤكدان معنى التعظيم الذى دل عليــه تنكير كل من اللفظــين ..

وقدمت المغفرة على الجنــة فى قوله (**مغفرة من ربكم وجنــة**) لأن غفران الذنوب والتجاوز عن السيئات أولى ، فالإنســان يتطلع إلى دفع مــا يضره ، ويحــرص على أن يتم أولا ، ثم يكون ثانيــا دخــول الجنة ، وهم يقولون : إن درء المضار مقدم على جلب المنافع ، والتخلية مقــدمة على التحليــة ..

والتشبيه فى قوله تعــالى : (**عرضــها السموات والأرض**) تشبيه بليغ ، حذفت أداته ، ووجــه الشبه ، كما حــذف المضاف فى المشبه به، والتقــدير : عرضها كعرض الســموات والأرض فى الســعة والبســطة ، والمراد من التشبيه وصف الجنــة بالسعة والبسطة ، وقــد بولغ فى هــذا الوصف من عــدة جهات :

١ – كون التشبيه بليغــا قد حذفت أداته ووجهه ..

٢ – حــذف المضاف من المشبه به ، إذ التقــدير : وجنــة عرضها كعرض السموات والأرض .

٣ ـ التعبير بالعـرض دون الطول ، وقـد جرت العادة بأن العـرض أدنى من الطول ، فإذا كان عرضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟ والعـرب كثيرا ما تصف الشىء بالعرض إذا أرادوا المبالغة فى وصفه بالسعة ، فهم يقولون : أعـرض فى المكارم ، يريدون: توسع فيها وبالغ فى تحصيلها ٠٠

(الذيـن ينفقـــون فى السراء والضراء والكاظمـــين الغيـــظ والعافـين عن النـاس والله يحب المحسنين) ٠

فصلت هـذه الآية الكريمة عمـا قبلها للاستئناف البيـانى ، كأن سـائلا سـأل عند سماعه قوله تعـالى (**وجنـــة عرضـــها السموات والأرض أعـدت للمتقين**) فقال : من هم أولئـك المتقون ، الذين نالوا ذلك الشرف ، وأعـدت لهم تلك الجنـة ؟ وخصهم الله بهـذه المنزلة ؟ فأجيب : خص الله بهـذه المنزلة الذين ينفقـــون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيـظ والعافين عن الناس ٠٠

(فالذين) مفعول به لفعـل محذوف ، تقـديره : يخـص الذين ينفقـون ،وهذا الحذف يدل على تعظيم المتقين ، إذ يؤدى إلى سرعة الإفصـاح عن الصفات المذكورة ، وإجرائها عليهم ، دون أن يحول النطق بالمحذوف بين تلك الصفات وسرعة إجرائها على المتقين(١٣) ٠

كمـا حـذف مفعول (ينفقـون) ليتناول كل مـا يصلح للإنفـاق ويصح أن يكون المعنى على عـدم إرادة المفعول ، إجـراء للفعل المتعدى مجرى اللازم مبالغـة فى الإنفاق والبذل ، كما فى قولهم : فلان يعطى

---

(١٣)لك أن تجعـل (الذين ينفقـون) فى محل جـر نعتـا للمتقين، أو بدلا منـه ، أو عطف بيـان ، وأن تجعله فى محل نصب على تقـدير فعل محـذوف كما بينا ، والمعنى : يخص الله بمغفـرته وجنتـه الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين ٠٠

ويمنع ، أى : يكون منه الإعطاء والمنع ، والمعنى على ذلك : الذين يكون منهم الإنفاق والبذل فى السراء والضراء ..

وقد عبر عن الإنفاق بالفعل المضارع ، فى قوله تعالى : (**الذين ينفقون فى السراء والضراء**) وعبر عن كظم الغيظ والعفو عن الناس بالاسم فى قوله عز وجل : (**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**) وذلك لأن الإنفاق أمر يتجدد ، فعبر عنه بما يفيد التجدد وهو الفعل المضارع ، وأما الكظم والعفو فقد عبر عنهما باسم الفاعل (الكاظمين والعافين) للدلالة على الثبوت والدوام والاستمرار ، فالكظم والعفو عادة ثابتة فيهم ،وهم دائمون عليها ومستمرون ، لا ينفكون عن الاتصاف بها ، وأما الإنفاق فيتجدد وقوعه منهم ، ولذا عبر عنه بالمضارع الذى يفيد التجدد والحدوث ..

وتقييد الإنفاق بكونه (فى السراء والضراء) يدل على أنهم ينفقون فى جميع الأحوال ، لأنها لا تخلو من حال مسرة وحال مضرة ، فحال السرور لا تمنعهم من المعروف ، وحال المحنة والابتلاء لا تحول بينهم وبين الإنفاق والعطاء ..

وقوله تعالى : (**والله يحب المحسنين**) تذييل مؤكد لمضمون ما قبله(١٤) و (أل) فى (المحسنين) إما للجنس ، فيتناول كل محسن ، ويدخل فيه أولئك المذكورون ، وإما للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء المذكورين وإطلاق (المحسنين) عليهم يؤذن بأن الصفات المذكورة من باب الإحسان الذى هو الإتيان بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق ، وجعل (أل) للعهد أولى ، لأنه أدخل فى مدحهم ، والثناء عليهم ..

(١٤) التذييل هو تعقيب جملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لإفادة المبالغة ، كما فى قوله تعالى : (**ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور**) سبأ : ١٧ ، فقوله : (وهل نجازى إلا الكفور) تذييل مؤكد لما قبله ، وكذا قوله : (والله يحب المحسنين) **تذييل مشتمل على معنى ما قبله مؤكد له .**

وقد قدم المسند إليه (لفظ الجلالة) على خبره الفعلى فى :
(والله يحب) لتوكيد محبة الله لهؤلاء المحسنين ، وهذا شأن ذلك التعبير ، فعندما يقدم المسند إليه على خبره الفعلى فى الإثبات نحو : محمد يقوم .. عبد الله نجح .. هو يقرى الضيف ، فإن ذلك التقديم يفيد التوكيد غالبا ، وقد يفيد القصر حسبما يقتضى السياق وقرائن الأحوال ..(١٥)

وترجع دلالة هذا التعبير على التوكيد إلى أن تقديم المسند إليه ينبه المخاطب ويجعله متطلعا ومترقبا للخبر الذى سيخبر به ، فعندما يأتى الخبر يقر فى الذهن ويكون له أثر حسن ووقع طيب ، كما أن تقديم المسند إليه قد أدى إلى إسناد الفعل إلى فاعله مرتين ، مرة باعتباره فاعلا وأخرى باعتباره مبتدأ ، وتكرار الإسناد توكيد ..(١٦) .

(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) .

عطفت هذه الآية على الآية قبلها ، ووقعتا معا بيانا للمتقين الذين أعدت لهم الجنة ووعدهم الله مغفرة منه وفضلا ، فقد بينت الآيتان أن هؤلاء المتقين قسمان ، قسم أقبل على الطاعات ، فأنفق فى السراء والضراء وكظم الغيظ وعفا عن الناس ، وقسم أذنب فتاب فغفر الله ذنوبهم ، وصار حالهم كحال من لم يذنب ، فاستحقوا الكرامة والاتصاف بالتقوى .

وكلا القسمين محسن ، أما الأول فقد أحسن إلى الغير والله يحب

---

(١٥) أنظر الحديث عن قوله تعالى : **(الله يستهزىء بهم)** فى ص٤٣
(١٦) الأول تعليل عبد القاهر والثانى تعليل السكاكي : أنظر دلائل الإعجاز ص ١٥٩ ومفتاح العلوم ص ٩٣ :

المحسنين ، وأما الثانى فقد أحسن إلى النفس بالتوبة من الذنوب ، والمؤمن العاصى إذا تاب كانت توبته إحسانا منه إلى نفسه ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ..

والتعبير (بإذا) دون (إن) يدل على أن خطأ المؤمن واقع لا محالة ،ولكنه يبادر بالتوبة والاستغفار ، ولا يصر على المعصية **« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »**(١٧) وسوسة الشيطان واقعة لا محالة ، وخطأ المؤمن التقى واقع أيضا لا محالة ، ولذا عبر بإذا فى الموضعين ، وإذا كان خطأ المؤمن واقعا ومحققا ، فإنه يبادر بالتوبة إلى ربه ، ويتذكر عقابه ووعيده ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) .

وقوله تعالى : (**فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم**) قالوا : الفاحشة هى الكبيرة كالزنا ، وظلم النفس : الصغائر كالقبلة واللمسة ونحوهما ، وقالوا الفاحشة : البالغة فى القبح ، والظلم : الذنب مطلقا، صغيرا أو كبيرا ، وعلى هذا القول فذكر ظلم النفس بعد ذكر الفاحشة من باب ذكر العام بعد الخاص تنويها بشأن الخاص لذكره مرتين ، مرة مستقلا ، وأخرى مندرجا تحت العام ..

وفى قوله تعالى : (**ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم**) حذف المضاف وتقديره : ذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه أو حقه العظيم وجلاله وجماله الموجب للاستحياء منه والخشية له ، فالحذف - كما نرى - يفيد الدلالة على العموم والشمول ، واتساع المعنى لكل ما يتذكره العاصى التائب إلى ربه ..

---

(١٧) الأعراف : ٢٠١ .

كما حـذف مفعول (فاستغفروا) لوضوحه وشهرته وذيوعـه ، إذ لا يخفى على ذى عقـل أن الاستغفار واقـع على الله تعـالى ، ويصح أن يكون الفعـل المتعـدى (استغفـروا) قـد أجـرى مجـرى اللازم فلا ينوى له مفعول ، والمعنى : ذكـروا الله تعالى فكان الاستغفار ..

والعطف بالفاء (فاستغفروا) ينبىء بسرعة الاستغفار ، والمبادرة به عقب التذكـر بلا إمهـال أو توان ، وهو يدل ـ كما قلنـا ـ على أن هـؤلاء محسنون لأنفسهم ، إذ لا يتمـادون فى الخطـأ ، بل يبـادرون بالإقلاع عنـه ، وطلب المغفـرة ..

وقوله تعـالى : **(ومن يغفـر الذنوب إلا الله)** أسـلوب استفهـام أريد به النفى ، والمعنى : ولا يغفـر الذنوب إلا الله ، وفرق بين الدلالة على النفى بأدواته الموضـوعة له ، مثـل : لا ومـا ولم ولن وليس ، وبين الدلالة عليـه بالاستفهام ، لأن فى الاستفهام تحـريكا للفكـر ، وتنبيهـا للعقل ، وحثا على النظر والتأمل ، وتقريرا للمعنى وتأكيدا له ، وكأنه قيـل : هل تعرفون أحـدا يقدر على غفران الذنوب صغيرها وكبيرها حقيرها وعظيمها غير من وسعت رحمته كل شىء ؟ وعندما يتأمل المخاطب ، ولا يجد من يغفر إلا الله ، يتقرر ذلك المعنى ويتأكد ..

ولا يخفى علينـا أن غفران الذنوب قد قصر على (الله) تعالى ، قصـرا حقيقيـا تحقيقيـا ، فهو قصـر صفة على موصوف ، وطـريقه (الـنفى والاستثناء) وقـد عبر بهذا الطريق (الـنفى والاستثناء) ليرتدع المنكرون وينزجـر الجـاهلون الذين يدفعون هـذه الحقيقـة ، وينكرونها ، وهذا القصر يوحى بأنه لا مفزع للمذنبين إلا كرم الله وفضله ورحمته التى وسعت كل شىء ..

وجملة القصر هـذه (ومن يغفـر الذنوب إلا الله) جملة اعتراضية اعترضت بين المعطوف عليـه (فاستغفروا لذنوبهم) والمعطـوف (ولم

يصروا على مـا فعلوا) أو بين الحال وصاحبها إذا اعتبر (ولم يصروا) حالا ، وهـذا الاعتراض يدل على المبادرة بالمغفرة والاهتمام بشأن الغفران والتنبيه على تحقيقه بفضـل الله وكرمه إذا تاب العبد وأناب ..

وقد وضـع الاسـم الظاهر (الذنوب) وكذلك لفظ الجلالة موضع الضمير ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفرها إلا هو ، وهـذا العدول عن مقتضى الظـاهر يدل على أن الذنوب مهما عظمت يغفرها الله بتوبة العبـد ، فعفـوه تعـالى أكبر وأعظم ، ولذا كان العـدول عن الضمير إلى الاسـم الظاهر (الذنوب) المقرون بلام الاستغراق دالا على أن الله يغفر الذنوب جميعا ، فلا يأس ولا قنوط من رحمـة الله « **قـل يا عبـادى الذين أسرفوا على أنفسـهم لا تقنطوا من رحمـة الله إن الله يغفر الذنوب جميعـا** »(١٨) .

كما أن العـدول عن الضمير إلى لفـظ الجلالة يدل على عزة الله وحكمته ، فهو العـزيز الذى لا يرد عليـه أحـد حـكمه ، الحكيم الذى يغفر لمن تقتضى حكمته أن يغفر له ، وإسناد الغفران إلى ذاته العليـة مع الحصر ، بعـد وجود الاستغفار ، يدل على تحقق الغفران ومحـو الذنوب بفضله تعـالى وكرمه ، وهـذه بشارة عظيمة ، تحرك النفوس نحو التوبة والإنابة إلى الله تعالى ..

وقوله تعـالى : (**ولم يصروا على ما فعـلوا وهم يعلمون**) عطف على قوله عز وجل (**فاستغفروا لذنوبهم**) أو حال منـه ـ كما ذكرنا ـ والتعبـير بما فى قوله (على ما فعـلوا) يدل على التهويل من شـأن المعصية والفواحش ، وينبـه ويحث على اجتنابها والابتعاد عنها(١٩).

---

(١٨) الزمـر : ٥٣ .

(١٩) « ما » إما اسم موصول عائده محذوف ، وإما مصدرية ، والمعنى : وَلَمْ يُصِرُّوا على الذي فعلوه ، أو على فعلهم .

وجملة (وهم يعلمون) جملة حالية من فاعل (يصروا) ؛ وقد حذف مفعول (يعلمون) وتقديره : وهم يعلمون قبح فعلهم ،وكان في حذفه تكريما لهؤلاء التائبين بعدم ذكر القبح ونسبته إليهم ..

وتعد الجملة الحالية (وهم يعلمون) قيدا ، وعندما يذكر القيد بعد الفعل المنفى ، يكون النفى مسلطا إما على القيد فقط أو عليهما معا ، كقولك : ما جئتك راكبا ، فيصح أن يكون المعنى : جئتك غير راكب ، وأن يكون : لا مجىء ولا ركوب ، وقد يكون النفى متوجها إلى الفعل فقط من غير اعتبار لنفى القيد أو إثباته ..

والمراد فى الآية الكريمة انصباب النفى على الفعل والقيد معا ، والمعنى وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهى عنها وبالوعيد عليها ، لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح .

(أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) .

عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد (أولئك) للإشعار ببعد منزلتهم وسمو مكانتهم ، وهو مشار به إلى المتقين الذين وصفوا بما ذكر من أوصاف ، فدل على أن ما يرد بعده من جزاء فالمشار إليه جدير به ، وهذا من الطف مواقع اسم الإشارة ، حيث يذكر مشارا به إلى شىء قد وصف بأوصاف عديدة ، ثم يجعل ما يترتب على تلك الأوصاف مسندا إلى اسم الإشارة ، فيدل اسم الإشارة عندئذ على أن المشار إليه قد استحق الجزاء المذكور ، وصار جديرا به من أجل الصفات المتقدمة التى اتصف بها ..

فقد وصف المتقون بأنهم ينفقون فى السراء والضراء ويكظمون الغيظ ويعفون عن الناس ، وإذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا

الله فاستغفروا ، ثم جاء اسم الإشارة فدل على أنهم جديرون بالجزاء المذكور ، وهو مغفرة ربهم وجنته من أجل صفاتهم المتقدمة ..

وهذا كثير فى آيات الذكر الحكيم ، كما فى قوله تعالى (**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**) (٢٠) .

وقوله تعالى : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** »(٢١) .

وقوله عز وجل : (**أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**) (٢٢) .

وقوله جل وعلا : (**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون**) (٢٣) .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، وعليك أن ترجع إلى الآيات المذكورة فى موطنها من سورها ، وتقف على المشار إليه ، وصفاته المتقدمة ، التى اتصف بها واستحق من أجلها الجزاء المذكورالذى أسند إلى اسم الإشارة وجاء عقبه ..

والتنكير فى (مغفرة) وفى (جنات) يدل على التعظيم والتفخيم ، وقد أكد هذا المعنى – معنى التعظيم والتفخيم – بالوصف الواقع بعد كل من اللفظين ، حيث وصفت المغفرة بكونها (من ربهم) ووصفت الجنات بجملة (تجرى من تحتها الأنهار) .

وجمع الجنات هنا يدل على أنها جنات فى ضمن تلك الجنة

---

(٢٠) البقرة : ٥ .
(٢١) البقرة : ١٦ .
(٢٢) المؤمنون : ١٠ ، ١١ .
(٢٣) البقرة : ٢٧ .

التى أخبر سبحانه وتعالى عنها ووصفها بقوله : **(عرضها السموات والأرض)** وذلك الوصف للسعة والبسطة ، أما الوصف هنا فلاشتمالها على ما يزيدها بهجة من الأنهار الجارية ٠٠

وقدمت المغفرة على الجنات ، لأن دفع المضار أولى ومقدم على جلب المنافع ، والتخلية مقدمة على التحلية ، وقد أوضحنا ذلك فى قوله تعالى : **(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ٠٠٠)** ٠

وفى قوله تعالى : **(تجرى من تحتها الأنهار)** مجاز عقلى حيث أسند الفعل إلى مكانه ، والذى يجرى إنما هو الماء ، كما يقال : سار الطريق ، وسال الوادى ، وهذا المجاز يفيد المبالغة فى جريان المياه ، ويصور كثرتها ، وامتلاء الأنهار بها ، وقد قيد الجريان بقوله (من تحتها) ليدل على جمالها وحسن منظرها ، فإن أكرم الجنات منظرا ما كانت أشجارها مظللة ، والأنهار تحت أشجارها مطردة ، واللام فى (الأنهار) إما للجنس ، وقد قصد به الإشارة إلى جنس الأنهار جمع النهر ، بلا قصد إلى العموم والاستغراق ، وإما للعهد الخارجى التحقيقى إشارة إلى ما ذكر فى قوله تعالى : **« مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى »**(٢٤) ٠

وإيثار التعبير بالاسم فى قوله تعالى (خالدين فيها) للدلالة على دوام الخلود واستمراره ، وفيه تكريم لهم ، كما أن هذا التعبير فى جانب الكفار يدل على دوام خلودهم فى النار ، **إهانة لهم وإذلالا**

---

(٢٤) محمد : ١٥ ٠

وقد صرح بالدوام والاستمرار فى قوله تعـالى : (**خالدين فيهـا مادامت السموات والأرض إلا مـا شـاء ربك**) (٢٥) .

وقوله تعـالى : (**ونعم أجـر العاملين**) أسلوب مدح ، والمخصوص بالمدح محـذوف ، والتقدير : ونعم أجـر العاملين المغفرة والجنـات ، وهـذا المخصوص في إعرابه ثلاثة أوجـه ، يعرب مبتدأ مؤخرا والجملة قبـله خبر ، أو يعـرب خبرا لمبتـدأ محـذوف ، والمعنى : ونعم أجـر العاملين هو المغفرة والجنـة ، أو يعرب مبتـدأ محذوف الخبر ، وعلى الوجهين الأخيرين ، يكون التعبير من قبيل الإيضـاح بعدم الإبهـام ، وللإيضـاح بعد الإبهام أثره فى تقرير المعنى وتأكيده ..

وفي التعبير خروج على خـلاف مقتضى الظاهر ، لأن المراد بالأجر الجـزاء المذكور في قوله تعـالى : (**أولئك جزاؤهم ..**) فالأصـل : ونعم هو أي : جزاؤهم فوضع الاسـم الظاهر (أجر العاملين) موضـع الضمير ، وذلك للنص على العمـل والتصريح به ، وإبراز أن مـا نالوه وفازوا به ، إنمـا هو بعملهم واستجابتهم ، فوضع الظاهر موضع الضمير قـد صـور الجزاء أجرا لعامل ، وفى ذلك إنجـاز وتحقيق لوعـد الله الذى وعـد به من المغفـرة والجنـة ، لأن العامل يدفع له أجـره ويوفى إيـــاه ...

(قـد خلت من قبلـكم سـنن فسـيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبـة المكذبين . هـذا بيـان للنـاس وهـدى وموعظة للمتقين).

تنكير (سـنن) يدل على التعظيم والتفخيم ، والمراد بالسنن : ما سـنه الله في الأمم المكذبة من وقائعه ، وهي وقائع عظيمـة ، قال تعـالى : « **ملعونين أينمـا ثقفـوا أخـذوا وقتـلوا تقتيلا . سـنة الله**

---

(٢٥) هـود : ١٠٨ .

فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »(٢٦) فقد جرت سنة الله أن يمهل المكذبين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر (**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد**) (٢٧) .

والتعبير بالماضى (خلت) ودخول (قد) عليه يدل على تحقق سنن الله ونفاذها ومضيها فى المكذبين ، فهى سنن قد خلت من قبل ، أى : تحقق وقوعها ومضيها فيمن أعرضوا عن رسل الله وكذبوا ..

والأمر فى قوله تعالى (**سيروا فى الأرض فانظروا**) للحث على التامل والتدبر ، وأخذ العظة والعبرة من أحوال الأمم السابقة وقد عبر بالحرف (فى) فقال (فى الأرض) والسير إنما يكون عليها لا فيها للدلالة على أن السير ينبغى أن يكون سيرا للنظر والبحث والتنقيب عن أخبار السابقين للاعتبار بها ..

والتعبير بالفاء (فسيروا فى الأرض فانظروا) يدل على وجوب المبادرة بالتأمل ، والإسراع بالنظر والتدبر ، وفى هذه الفاء إيذان بسببية الخلو (قد خلت من قبلكم سنن) للسير والنظر أو للأمر بهما .

واسم الإشارة فى قوله تعالى : (**هذا بيان للناس**) مشار به إلى الآية السابقة (قد خلت من قبلكم سنن) والمعنى : هذا الذى ذكر إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب ، وفيه حث لهم على النظير فى سوء عواقب المكذبين قبلهم ، والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم .

ويصح أن تكون الإشارة إلى ما لخص وبين من أمر الكفار والمتقين والتائبين ويكون قوله تعالى : (**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا**) جملة

---

(٢٦) الأحزاب : ٦١ ، ٦٢ .
(٢٧) هود : ١٠٢ .

معترضـة للحث على الإيمان والتقوى والتـوبة ، وهو ما يستحق به الذى ذكـر من الأجر والجزاء ٠٠٠

وسـواء جعلت الإشـارة إلى الآية السابقة (قد خلت) أو إلى ما لخص وبين من أمـر الكفـار والمتقين والتائبين ، فإن اسم الإشـارة (هـذا) قد جسد هـذه المعانى المشار إليها وأبرزها واضحة شاخصة ، وإيثـار التعبير بالاسم الموضـوع للقريب (هذا) دون البعيد (ذلك) للإيذان بقـرب الموعظة ووضوحها لمن أراد أن يتعظ ويتدبر ، وكان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شـهيد ٠٠

والتنكير فى قوله تعـالى : « **بيـان للنـاس وهـدى وموعظـة للمتقـين** » للدلالة على التعظيم ، وأل فى (النـاس) إمـا للعهـد والمراد بهم : المكذبون وإمـا للجنس ، والمعنى : هذا بيان لجميع الناس لكن المنتفع به المتقـون ، لأنهم يهتدون به وينتجعون بوعظه ٠٠

والمراد بالبيـان الدلالة التى تفيـد إزالة الشبهة ، فالبيـان عـام فى أى معنى كان ، والهـدى بيـان لطريق الرشـد ليسلك دون طـريق الغى ، والموعظة الكلام الذى يفيـد الزجـر عما لا ينبـغى فى طـريق الدين (٢٨) ٠

وعلى هـذا فذكر الهـدى والموعظة بعـد ذكر البيان ، من قبيـل ذكر الخاص بعـد العام ، تنويها بشان الخـاص لذكـره مرتين ، مرة مندرجا فى العـام ، ومرة مستقلا بذاته ٠٠

وعلى اعتبـار أن الأمر فى قوله تعـالى : « **فسـيروا فى الأرض فانظـروا** » للمؤمنين خاصة ، يكون ذكر المتقين من وضع الظاهر موضع الضمير ، إذ الأصـل : وهـدى وموعظة لكم ، فعدل عن هذا الأصـل

---

(٢٨) انظر التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٩ ص ١٣ ٠

إلى ما عليه النظم الكريم « وهدى وموعظة للمتقين » وسبب هذا العدول الإيذان بعلة الحكم ، فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم وعدم تكذيبهم (٢٩) ٠

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ٠ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ٠ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » ٠

المراد بالنهى فى قوله تعالى : « **ولا تهنوا ولا تحزنوا** » تسلية رسول الله - ﷺ - والمؤمنين عما أصابهم يوم أحد ، وتقوية قلوبهم، وحثهم على القتال والجهاد ، والمعنى : لا تضعفوا عن قتال الأعداء والجهاد فى سبيل الله بسبب ما نالكم من الجراح يوم أحد ، ولا تأسوا على ما أصبتم به من قتل الأعزة ، لأنكم أنتم الأعلون ٠٠

وهو معطوف على الأمر فى قوله تعالى : (**فسيروا فى الأرض**) والمعنى : سيروا فى الأرض فانظروا وتأملوا واعتبروا ، ولا تهنوا ولا تحزنوا ، فالنهى معطوف على الأمر بالسير فى الأرض ، ومرتبط به معنى ، والوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ووجود المناسبة ، حيث اتفقتا فى الإنشائية لفظا ومعنى ٠٠

وقوله تعالى : « **وأنتم الأعلون** » بشارة للمؤمنين بالعلو والغلبة فهم الأعلى شأنا ، وهم الأغلب ، أصابوا من الكفار يوم بدر أكثر مما أصاب الكفار منهم يوم أحد ، ونالوا منهم أيضا يوم أحد ، وشهداء المؤمنين فى الجنة ، وقتلى الكفار فى النار ، والمؤمنون يقاتلون لإعلاء كلمة الله ، والكفرة يقاتلون للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر ، ولذا

---

(٢٩) قيل الأمر فى قوله (فسيروا) للمؤمنين ، وقيل للكفار ، ويصح أن يكون الأمر للجميع ٠

فإن المؤمنين هم الأعلى شأنا ، وهم الغالبون ، قال تعـالى : « **ولقـد سـبقت كلمتنـا لعبـادنا المرسـلين • إنهم لهم المنصـورون • وإن جندنا لهم الغـالبون** »(٣٠) •

وتعرب جملة : (وأنتم الأعلون) حالا من الفاعل فى قوله تعالى: (**ولا تهنـوا ولا تحـزنوا**) وجوز بعضهم جعلها جمـلة معترضـة بين النهى والشرط (إن كنتم مؤمنين) لأن الشرط متعلق به ، والمعنى : إن كنتم مؤمنين فلا تهنـوا ولا تحزنوا ، وعلى جعلها حـالية يكون الشرط متعلقـا بهـا ، والمعنى : إن كنتـم مؤمنين فأنتـم الأعلون ••

وقـد أوثـر التعبير بإن فى قـوله تعـالى : « **إن كنتم مؤمنين** » إلهـابا لهـم ، وحثـا على تحقيق المعـلق بالشرط ، فـإن ذلك هــو المقصـود من الجمـلة الشرطية هنـا ، كمـا يقـال : إن كنت عملت لك فاعطنى أجـرى ، وإن كنت صادقا فامتثـل أمـر ربـك ، فالمقصـود بالشرط تحقيق جـوابه ، وهـو إعطـاء الأجـر والامتثال .

وجـواب الشرط محـذوف دل عليـه ما قبله ، والتقدير : إن كنتـم مؤمنين فـلا تهنـوا ولا تحـزنوا ، أو إن كنتـم مؤمنين فأنتـم الأعلون شـأنا وأنتـم الغالبون ، والسـر البلاغى وراء حـذفه ، أن تذهب النفس كـل مذهب فى تقـدير الجـواب والوقـوف على المعنى ••

وفى قـوله تعـالى : « **إن يمسسكم قـرح فقـد مس القـوم قـرح مثـله** » عبـر بالفعـل المضارع (يمسسكم) والمس قـد وقـع ، لحكاية الحـال الماضية ، والتعبير بإن يـدل على أن ذلك لا يمس المؤمنين إلا نادرا ، عنـدما يخالفون أمـر الله ورسـوله ، كمـا حـدث من الرمـاة يـوم أحـد ، أو عنـدما يغتـرون بكثرتهم ، كمـا وقـــع منهـم يـوم حنـين ، فقـد قـالوا : لـن نهـزم اليـوم عن قـلة ، فهزموا لإعجابهم

---

(٣٠) الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣ •

بكثرتهم ، قال تعالى : « **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** ٠٠ »(٣١) ولكن عندما يركنون إلى الله ، ويعتمدون عليه ، ويستمدون منه العون ، يكون النصر حليفهم ، قال تعالى : « **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** »(٣٢) ٠

وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله تعالى : « فقد مس القوم قرح مثله » والمعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فلا تضعفوا ، فقد نلتم منهم يوم بدر ، ولم يضعفهم ذلك ، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال ، فأنتم أولى بذلك منهم ، أو المعنى : إن نالوا منكم فى هذا اليوم فلا تحزنوا ولا تهنوا ، فقد نلتم منهم قبل أن تخالفوا أمر رسول الله - ﷺ - ، وقتلتم منهم نيفا وعشرين ، فهم يألمون كما تألمون ٠

والمماثلة المذكورة للقرحين فى قوله تعالى : « فقد مس القوم قرح مثله » قالوا : هى كثرة القتلى فى الجملة ، فقد قتل من المشركين يوم بدر سبعون وأسر سبعون ، واستشهد من المسلمين فى أحد خمسة وسبعون وجرح سبعون ، وقيل المراد بها مجرد الانهزام لا كثرة القتلى(٣٣) ٠٠

وعلى جعل المس فى أحد ، فإن قرح المشركين كان مماثلا لقرح المسلمين أيضا ، فقد قتل منهم نيف وعشرون - كما ذكرنا - ورجعوا خائبين مع كثرتهم وغلبتهم ، حيث حفظ الله رسوله والمؤمنين ٠

وفى قوله تعالى : « **وتلك الأيام نداولها بين الناس** » جاء

(٣١) التوبة : ٢٥ ٠
(٣٢) الحج : ٤٠ ٠
(٣٣) انظر روح المعاني ٤/٦٨ ٠

اسم الإشارة مشارا به إلى ما بعده « الأيام » كما فى الضمائر المبهمة نحو قوله تعالى : « **إنه لا يفلح الكافرون** »(٣٤) ، وقوله عز وجل : « **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** »(٣٥) وهذا يدل على التفخيم والتعظيم ، لأن الشىء إذا أبهم ثم وضح وفسر بدا عظيما جليا مؤكدا ، وثبت عندئذ فى النفس وقر ، وكان له أثره ووقعه ٠٠

والمراد بالأيام : أوقات الظفر والغلبة الجارية بين الأمم الماضية والآتية ، ومنها يوما بدر وأحد ، فأل فى (الأيام) للعهد ، وليس المراد بالأيام : الأيام العرفية (٣٦) ٠

وعبر بالفعل المضارع فى قوله تعالى : « نداولها بين الناس » للدلالة على التجدد والاستمرار ، وهذا يشعر بأن تلك المداولة سنة متبعة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة إلى أن يأتى أمر الله تعالى ، ومن أقوالهم : الأيام دول ، والحرب سجال ، وفيه تسلية للمؤمنين عما أصابهم يوم أحد ٠٠

وفى قوله تعالى : « **وليعلم الله الذين آمنوا** » حذف إما للمعلل وإما للعلة ، فالمعنى على الأول : وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك ، فحذف الفعل المعلل ، واكتفى بذكر العلة « ليعلم الله الذين آمنوا » وهو من باب التمثيل بمعنى : فعل الله ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت ،

---

(٣٤) المؤمنون : ١١٧ ٠

(٣٥) الحج : ٤٦ ٠

(٣٦) وتعرب الأيام إما خبرا لاسم الإشارة ، والجملة بعدها خبرا ثانيا أو حالا العامل فيها معنى الإشارة ، وإما صفة أو بدلا أو عطف بيان والجملة بعدها هي الخبر ٠٠

فالله عـز وجـل لم يـزل عالمـا بالأشياء قبـل كونهـا ، وجعل علمـه تعـالى الذين آمنوا عـلة للمداولة يستقيم عـلى التمثيـل المذكـور ..

وقيـل : إن معنـاه ليعلمهم علمـا يتعلق بـه الجـزاء ، فيحمـل العـلم على التعـلق التنجيزى المترتب عليـه الجـزاء ، أى : ليعلمهم موجـودا منهـم الثبـات على الإيمـان ..

ويصـح أن يكـون العـلم من قبيـل المجـاز المرسل حيث أطـلق السـبب على المسبب ، أى : أطـلق العـلم وأريـد التمييـز ، والمعنى : وليتميـز الثابتون على الإيمـان من الذين يعبدون الله على حـرف فعل - عـز وجـل - ذلك ..

وعلى الثـانى ، وهـو كـون المحذوف العـلة ، والمذكور معطوفا عليهـا يكـون المعنى : وتلك الأيـام نداولها بين النـاس لتكون حكمـا وفـوائد جمـة ، وليعـلم الله الذين آمنـوا ويتخـذ منـكم شـهداء ، والسـر البلاغى لهـذا الحـذف الدلالـة على أن العـلل غيـر منحصرة فيمـا عـــدد من الأمـور ، فعـلى العبـد أن يصـبر ، وألا يســوءه ما يجـرى عليـه من المصـائب ، لأنه لا يشعر بمـا لله فى طيـــه من الألطـاف ، ولا يدرى العبـد أين يكـون الخيـر ، أفيمـا طـواه الله عنـه وحجبـه أم فيمـا أبـرزه وأجـراه عليـه ، وصـدق الله تعـالى إذ يقـول : « **وعسى أن تكرهوا شيئا وهـو خيـر لـكم وعسى أن تحبوا شـيئا وهـو شـر لـكم والله يعـلم وأنتـم لا تعلمون** »(٣٧) .

وقـد التفت من التكلم فى قـوله تعـالى : (نداولهـا) إلى الغيبة فى قـوله عـز وجـل : (وليعـلم الله) والالتفات من صـور خـروج الكـلام على خـلاف مقتضى الظـاهر ، حيث ينتقـل من إحدى طـرق الكـلام إلى الأخـرى ، فـلا يمضى الكـلام على وتيـرة واحـدة ، بـل

(٣٧) البقرة : ٢١٦ .

يتنوع ، ومن شأن هذا التنوع أن يحرك الذهن ، وينبه العقل ، ويوقظ الحس والفكر ، فيدرك مرمى الكلام ، وتقر فى الأذهان مقاصده ...

وفضلا عن ذلك فإن الالتفات فى الآية الكريمة أدى إلى التصريح بالاسم الجليل (الله) تربية للمهابة فى النفوس ، وإشعارا بكمال صفاته تعالى وكمال افعاله ، وطمأنة للمؤمن الذى يركن إلى الله فيذهب همه ، ويثبت فؤاده ، وتستريح نفسه ، ويجد فى ذلك تسلية له عما أصابه ..

وقوله تعالى : « **ويتخذ منكم شهداء** » كناية عن التكريم والتعظيم ، لأن من اتخذ شيئا لنفسه ، فهو يحبه ويعتز به ، ومن اتخذه الله شهيدا ، فقد اختاره وارتضاه ، والمعنى : وليكرم أناسا منكم بالشهادة .

والشهداء إما جمع شهيد ، والمراد بهم شهداء الحرب الذين قتلوا فى سبيل الله ، وأراد بهم : شهداء احد ، وإما جمع شاهد ، والمعنى : ويتخذ منكم شهودا بما ظهر من ثباتهم على الحق ، وصبرهم على الشدائد ، وغير ذلك من شواهد الصدق ، ليشهدوا على الأمم يوم القيامة ، قال تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا .** »(٣٨) .

وقوله تعالى : « **والله لا يحب الظالمين** » جملة اعتراضية ، اعترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهى مقررة لمضمون ما قبلها ، وفيها تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافر على الحقيقة ، لأنه تعالى لا ينصر إلا أولياءه الذين نصروه ، وما يكون من غلبة

---

(٣٨) البقرة : ١٤٣ .

للكافر أحيانا ، فإنما ذلك استدراج له وإملاء ، وابتلاء للمؤمن وتمحيص ..

والمراد بالظالمين : الكفار أو المنافقون ، ووصفهم بالظلم ليدل على تجاوزهم وتعديهم على الحق ، وليشعر بأن هذا هو السبب الذى أوجب عليهم بغض الله تعالى ، ومن أبغضهم الله أبغضه أهل السماء ، ووضعت له البغضاء فى الأرض ..

وقد عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر وهو لفظ الجلال ، إذ الأصل : وهو لا يحب الظالمين ، لتقدم ذكره تعالى ، وفى هذا العدول تربية للمهابة - كما ذكرنا - وتأكيد لبغضه الظالمين ، كما يدل على ذلك أيضا تقديم المسند إليه « لفظ الجلالة » على خبره المنفى ، فإن هذا التقديم يدل على تأكيد نفى الفعل .

وفى قوله تعالى : « **وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** » عطف التمحيص وهو التطهير من الذنوب والتخليص من العيوب ، على الاتخاذ ، فهو العلة الثالثة من العلل المذكورة للمداولة ، وقد ذكرت اللام فى هذه العلة ، وكان يمكن الاستغناء عنها كما استغنى عنها فى العلة الثانية (ويتخذ) لدلالة اللام فى العلة الأولى (وليعلم) على كل منهما ، ولكنها ذكرت هنا على الرغم من الدلالة عليها للاعتناء بشأن هذه العلة ، ولذا أيضا أظهر لفظ الجلالة فى موضع الإضمار ، ولعل الفصل بالجملة الاعتراضية بين العلة الثانية والعلة الثالثة هذه ، مما دعا أيضا إلى هذه اللام ، واقتضى ذكرها ..

وتلك العلل الثلاث « ليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ... وليمحص الله الذين آمنوا » علل للمداولة باعتبار كونها علي المؤمنين ، والعلة الرابعة (ويمحق الكافرين) خاصة بالكفار

كمـا هـو واضـح ، ولعـل تأخيـر العـلة الثالثة عن الاعتراض لئـلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين ، إذ التمحيص تطهيـر من الذنوب ، وتصـفية من السـيئات ..

وأيضـا لكى تقتـرن هـذه العـلة الثالثـة (وليمحص الله الذين آمنـوا » بالعـلة الرابعـة الخاصة بالكفـار (ويمحق الكافرين) لمـا بينهمـا من المناسبة ، ففى كـل من التمحيص والمحق إزالـة ، إلا أن التمحيص إزالـة للذنوب والسيئات والعيـوب ، يقـال : محصت الذهب إذا أزلت خبثـه ، وأمـا المحق فهـو إزالـة العـين ، وإهـلاك النفس ، وأصـله التنقيص شـيئا فشـيئا ، ومنـه المحـاق ، والمعنى : ويهـلك الكافرين فـلا يبقى منهـم أحـدا ..*

« أم حسـبتم أن تدخلوا الجنـة ولمـا يعـلم الله الذين جاهـدوا منـكم ويعـلم الصابرين . ولقـد كنتـم تمنـون المـوت من قبـل أن تلقـوه فقـد رأيتمـوه وأنتـم تنظـرون » .

استئناف لبيـان الغـاية القصوى من مداولة الأيام ، وهى فـوز المجاهدين الصابرين فى الجهـاد لإعـلاء كلمـة الله بدخـول الجنـة ، فـأم منقطعة بمعنى بـل والهمـزة ، أفـادت الإضراب عن التسلية ببيان العـلل فيمـا أصـابهم ولاقـوه من شـدة ، إلى تحقيق الغـاية منهـا ، وهى الفـوز بالمطلب الأسنى والمقـام الأعـلى .

والاستفهام بأم استفهام إنكـارى ، إذ المقصـود إنكـار أن يقـع منهـم ذلك الحسـبان ، والمعنى : بـل لا ينبغى منـكم أن تظنـوا أنكم تدخلون الجنـة ، وتفوزون بمـا أعـد الله فيهـا من نعيـم ، دون أن

* المحاق بفتح الميم وكسرها وضمها : استتار القمر آخر الشهر ، لأنـه يطلع قبل طلوع الشمس فلا يرى .

يقــع ابتلاء منــا لــكم وتمحيص ، لنعلم المؤمنين المجاهدين ، الصابرين على الجهــاد لإعــلاء كلمــة الحــق ٠٠٠

ونفى العــلم فى قــوله تعــالى : (ولــا يعــلم الله) إما باعتبار تعلقــه التنجيزى كمــا مــر فى قــوله عــز وجــل (وليعــلم الله الذين آمنــوا) والمعنى : لمــا يعلمهم علمــا يتعلق بــه الجــزاء ، فيترتب عليه جزاؤهــم ٠٠

وإمــا على ســبيل الكنــاية حيث أطلق عــلم الله وأريــد به المعلوم وهــو الجهــاد ، والمعنى : ولــا تجاهدوا ، لأن عــلم الله تعــالى متعلق بالمعــلوم ، فنــزل نفى العــلم منزلة نفى متعلقه ، لأنــه منتف بانتفائه ، والتعبير عن نفى المعــلوم بنفى العــلم خــاص بعــلم الله تعــالى ، لأنه يلــزم من عــدم تعــلق علمــه تعــالى بوجود شىء ما عــدم ذلك الشىء ، ضرورة أنــه لا يعــزب عن علمــه شىء لعمــوم تعلقــه ، يقــال ما علم الله فى فــلان خيــرا ، والمــراد : ليس فيــه خيــر حتى يعلمه الله تبارك وتعــــالى ٠٠

وإيثــار الكنــاية على التصريح للمبالغة فى تحقيق المعنى المراد ، وهــو عــدم تحقق الجهــاد ، الذى هــو سبب الفــوز بالجنة ، والنعيم العظيم الذى أعــد بهــا للمجاهدين الصــابرين ، لأن الكنــاية بمثــابة دعــوى الشىء ببينــة ، وهــذا يشــعر بضرورة الإخــلاص فى العمــل ، والتخلى عن الريــاء ، لأن المقصود أن يعلم الله تعالى ، لا علم الناس ٠٠

وفى توجيــه النفى إلى الموصوفين فى قــوله تعــالى : (ولــا يعــلم الله الذين جاهــدوا منــكم) دون أن يقــال : ولــا يعــلم الجهاد واقعــا منــكم ، إذ المقصــود نفى الوصف وهــو الجهــاد ، لأن فى ذلك مزيــدا من المبالغة فى انتفــاء الوصف ، وعــدم تحققه أصــلا ، إذ نفى الموصوف يستلزم انتفــاء صفته ٠٠

وعبـر بلمـا دون لـم التى بمعناها ، لأن فى (لمـا) ضربا من توقـع الفعل المنفى بهـا ، وهـذا يدل على نفى الجهـاد فى المـاضى ، وعلى توقعـه فى المستقبل ، تقـول : وعـدنى فـلان ولمـا يف ، تريـد أن الوفـاء لـم يقـع فى المـاضى ، ويتوقـع وقوعه فى المستقبل ..

والـواو فى قـوله تعـالى : (ويعـلم الصابرين) واو المعيـة والمضارع منصوب بعدها بأن مضمرة ، وفى هـذه الـواو معنى الجمع ، كقـولك : لا تاكـل السـمك وتشرب اللبن ، والمعنى : أم حسـبتم أن تدخلوا الجنـة والحـال أنـه لـم يتحـقق منـكم الجهـاد والصـبر ، أى : الجمـع بينهمـا ، وقـرىء برفـع (يعـلم) على أن الـواو واو الحـال ، والمعنى : ولمـا تجاهدوا وانتـم صابرون ..

وأوثـر التعبيـر بالصابرين فـلم يقـل : ويعـلم الذين صبروا ، على غـرار قـوله تعـالى : (ولمـا يعـلم الله الذين جاهدوا) للدلالة على أن المعتبـر هـو الاستمرار على الصـبر والمداومة عليه والثبات ، وهـذا لا يتـأتى عند التعبيـر بالموصول وصلته ، إذ ليس فى الفعـل معنى الثبـات والاستمرار ، وأمـا الجهـاد فليس ذلك معتبرا فيـه ، لأنـه يتجـدد حينـا بعـد حـين ، وتأتى الغـزوة بعـد الغـزوة ، فناسـب ذلك أن يعبـر عنـه بالموصول وصلته « الذين جاهـدوا » .

وقـوله تعـالى : « **ولقـد كنتم تمنـون المـوت من قبـل أن تلقوه فقـد رأيتمـوه وأنتـم تنظرون** » عتـاب للمنهزمين الذين كانوا يتمنون أن يحضروا مشـهدا مع رسـول الله - ﷺ - ليصيبوا من كرامة الشهادة مانـال شـهداء بـدر ، عتـاب لهـم على تمنيهـم الشهادة وهـم لـم يثبتـوا حتى يستشهدوا ، أو على تمنيهـم الحـرب وتسببهم لهـا ثـم جبنهـم وانهزامهم وليس العتـاب على تمنى الشهادة فى حـد ذاتهـا ، لأن ذلك ممـا لا يعـاتب عليـه كمـا لا يخفى ..

ومعنى تمنى المـوت : تمنى الشهادة ونيـل الكرامة ، ولا يقال : كيف تتمنى الشـهادة وفى تمنيهـا غلبـة الكافـر المسـلم ، لأن قصـد المتمنى الوصـول إلى نيـل كـرامة الشهداء فحسـب ، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن ، كمـا أن من يشرب دواء الطبيب النصرانى إنمـا يقصـد الشـفاء دون نفعـه وترويج صناعته ، وقـد وقـع هـذا التمنى من عبد الله بن رواحـة ، وهـو من كبـار الصحابة ، رضـوان الله عليهم أجمعـين ، وذلك حيث يقـول :

لـكننى أسـال الرحمـن مغفـرة
وضـربة ذات فـرغ تقـذف الزبـدا

أو طعنـة بيـدى حـران مجهـزة
بحـربة تنفـذ الأحشـاء والكبـدا

حتى يقـولوا إذا مروا على جـدثى
أرشدك الله من غاز وقد رشـدا(٣٩)

والفـاء فى قـوله تعالى : (فقـد رأيتمـوه) فـاء الفصيحة ، أفصحت عن الشـرط المحـذوف ، والتقدير : إن كنتـم صادقين فى تمنيكم الشـهادة والمـوت فى سـبيل الله فقـد رأيتـم أسبابه ، وشاهدتموها ، وإيثـار التعبيـر بالرؤية على الملاقاة ، فـلم يقـل : من قبـل أن تلقوه فقـد لقيتموه ، ثم تقييـد الرؤية بالحـال (وأنتـم تنظرون) للمبالغة فى توكيـد المشـاهدة ، كمـا يقـال : رأيتـه بعينى رأسى ، ورأيتـه وليس فى عينى عـلة ، والمـراد : رأيته رؤية حقيقية ، لا خفاء فيهـا ولا شـبهة ، وأيضـا فـإن فى التعبيـر بالرؤية دون الملاقاة ما يشـعر

---

(٣٩) الزبد بفتح الباء والزاى المشددة المراد بهـا : الدماء أى : تقذف الدماء وتسيلها ، ويجون أن راد بالموت فى الآية : الحرب فإنها من أسبابه ، وذلك على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته المسببية ، وعندئذ فالمتمنى : الحرب لا الموت ..

ويجوز أن يراد

بانهزامهم وتوليهم ، ولـو صبروا فى القتـال وثبتـوا لقيـل : فقـد لقيتمـوه ..

« وما محمـد إلا رسـول قـد خلت من قبـله الرسـل أفـإن مـات أو قتـل انقلبتـم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيـه فـلن يضر الله شـيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

فى هـذه الآيـة الكريمة قصـر لرسول الله محمـد - ﷺ - على صـفة الرسـالة لا يتعداها إلى البعـد عن الهـلاك ، فهـو - ﷺ - رسـول يخـلو كمـا خلت الرسـل من قبـله ، وليس جامعـا بين صفتى الرسـالة والتبـرى من الهـلاك ، فالقصر قصر إفـراد ، لأن الصحابة - رضى الله عنهـم - لمـا استعظموا عـدم بقـائه ، نزلـوا منـزلة من يستبعد ذلك ، وينـكر خـلوه - ﷺ - حتى كأنهم قـد اعتقدوا فيـه وصفين : الرسـالة والبعـد عن الهـلاك ، فقصر - ﷺ - على الرسـالة لا يتجاوزها إلى البعـد عن الهـلاك ، وذاك قصر إفـراد .

وأمـا قـوله تعـالى فى شـأن المسـيح عيـسى بن مريـم : **« ما المسـيح ابن مريـم إلا رسـول قـد خـلت من قبـله الرسـل »**(٤٠) فـإنه قصر قـلب ، لأن النصـارى اعتقدوا أن الله ثالث ثلاثة ، اعتقدوا أن عيسى - عليـه السـلام - إلهـا ، فقلب ذلك الاعتقـاد ، وقصر على كـونه رسـولا يخـلو كمـا خلت الرسـل من قبـله ، لا يتجاوز ذلك إلى كـونه إلهـا ..

وقـد أوثـر طـريق النفى والاستثناء ، فى الدلالة على القصر ، دون (إنما) مع أن الصحابة لا ينكرون كونه - ﷺ - مقصورا على الرسالة لا يتعداها إلى البقـاء ، وذلك لأنهـم لمـا كانوا متعلقين بـه - ﷺ - ويستعظمون مـوته ، ويعـدونه أمـرا خطيـرا وحـدثا جليـلا ، نزلوا

---

(٤٠) المـائدة : ٧٥ .

لذلك منـزلة من ينكـر موته ، ويعتقـد أنـه يجمـع بين صفتى الرسالة والبقـاء ، والسـر البلاغى وراء هـذا العـدول هـو تصـوير حــال الصـحابة رضى الله عنهـم ، والإشـعار بعظـم ذلك الأمـر فى نفوسهم ، وشـدة حرصهم على بقـائه - ﷺ - كمـا لا يخـلو الأمـر من عتـاب عنيف لهـم ، لعـدم مضيهم على وفـق ما يعلمون ، وما هـو راسـخ فى نفوسـهم ..

والاستفهام فى قـوله تعـالى : « أفـإن مـات أو قتـل انقلبتم على أعقابكم » استفهام إنكـارى ، والفـاء عاطفـة للجمـلة الشرطية على الجمـلة قبلهـا ، على معنى التسبب ، ودخـول الهمـزة على الفـاء يـدل على إنكـار معنى حـرف العطف ، أى : إنكـار أن يجعلوا خـلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعـد خلوه - ﷺ بموت أو قتل ، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا بـه ، يجب أن يجعل سـببا للتمسك بالدين لا للانقلاب عنـه ..

ولـم يكن ثمـة انقـلاب ولا ارتـداد حقيقية ، وإنمـا هـو تغليظ عليهـم لمـا كـان منهـم من الفـرار يـوم أحـد ، والانكشاف عن رسول الله - ﷺ - فالإنكـار فى الآيـة بمعنى أنـه لـم يكن ذلك ، ولا ينبغى أن يكـون ، وليس إنكـارا لانقـلاب أو ارتـداد وقـع منهـم ..

والتعبيـر بأداة الشـرط (إن) فى قـوله تعـالى : « أفـإن مـات .. » لتنزيل المخاطبين لشـدة تعلقهم بـه - ﷺ - منـزلة من يستبعد مـوته ، ويتـردد فى وقـوعه ، استعظاما لـه ..

وقـوله تعـالى : « انقلبتم على أعقابكم » الانقـلاب على الأعقاب فى الأصـل : الرجوع القهقرى ، فهـو استعارة تمثيلية للارتداد والرجوع إلى ما كـانوا عليـه قبـل الإسـلام ، والمعنى على الإنكـار - كمـا أوضحنا - لا عـلى أن هـذا قـد وقـع منهـم ..

وفى وضع الاسم الظاهر موضع الضمير فى قوله تعالى : « وسيجزى الله الشاكرين » إشعار بمزيد الاعتناء بشأن جزائهم ، حيث أسند إلى صريح لفظ الجلالة للدلالة على عظمه وفخامته ..

كما أطلق لفظ (الشاكرين) على الثابتين ، الذين لم يفروا ولم يتخلوا عن رسول الله – ﷺ – يوم أحد ، وسماهم عز وجل شاكرين ، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا ، وكان ثباتهم ناشئا عن يقين ، وإيمان راسخ ، وفيه إيماء إلى ضعف إيمان من فر وتولى عن رسول الله – ﷺ – حيث لم يشكر نعمة الإسلام فيما صنع من التولى والفرار ، فاتصال قوله تعالى : (وسيجزى الله الشاكرين) بقوله عز وجل قبله : (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) اتصال الوعد بالوعيد ..

ولا يخفى عليك أن تنكير (شيئا) للدلالة على التقليل والتحقير ، وأن توجه النفى إلى المفعول فى قوله تعالى : (فلن يضر الله) يفيد أنه يضر غير الله تعالى ، وليس هذا الغير إلا نفس المنقلب على عقبيه ، فهو إنما يضر نفسه بتعريضها لسخط الله وعذابه ، وحرمانها من الثواب والجزاء العظيم الذى أعده الله للشاكرين ..

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين .. » .

فى هذه الآية الكريمة قصر حصول الموت ووقوعه بالأنفس على كونه بإذن الله تعالى ومشيئته ، لا يتعدى هذه المشيئة ، والمعنى : ما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس مطلقا بسبب من الأسباب إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه ، ووراء دلالة القصر معنيان :

أحدهمـا : الحـث على الجهـاد لإعـلاء كلمـة الله ، والإشـعار بأن الحـذر لا ينفـع ، وأن أحـدا لا يمـوت قبـل بلـوغ أجـله وإن خـاض المهـالك واقتحـم المعـارك ..

الثـانى : حفـظ الله تعـالى نبيـه - ﷺ - عند غلبـة العـدو فى يـوم أحـد ، والتفافهم عليـه عنـدما تـولى عنـه من تـولى من المسلمين ، وفى ذلك تسـلية للمؤمنين ، لمـا أصـابهم من الخـوف على رسـول الله - ﷺ - عندما التف عليـه الأعـداء ..

وقـد أكـد القصر بقـوله تعـالى : « كتابا مؤجـلا » لأن (كتابا) مصـدر مؤكـد لعـامله المستفاد من الجمـلة السابقة - جمـلة القصر - والمعنى : كتب ذلك المـوت المـأذون فيـه كتـابا مؤجـلا ، أى : موقتا بوقت معـلوم لا يتقـدم ولا يتأخـر « **فـإذا جـاء أجلهـم لا يستأخرون سـاعة ولا يستقدمون** »(٤١) .

وقـوله تعـالى : « **ومن يـرد ثـواب الدنيـا نؤته منهـا** » تعريض بالذين شغلتهم الغنـائم يـوم أحـد عن رسـول الله - ﷺ - فخالفوا أمـره ، وتركـوا مكانهم ، وانشغلوا بالغنـائم ..

وقـد التفت من الغيبـة فى قـوله تعـالى : (إلا بإذن الله) إلى التكلم فى قـوله عـز وجـل : (نؤتـه منهـا) وفى هـذا الالتفـات وعيـد لمـن يركنون إلى الدنيـا ويغترون بزخرفها ومتاعها القليـل ، فهـو التفـات الغاضـب المتوعـد ، قـال تعـالى : « **من كـان يريـد العاجلة عجلنـا لـه فيهـا ما نشاء لمـن نريـد ثم جعلنـا لـه جهنـم يصلاها مذمومـا مدحـورا .** »(٤٢) .

وكمـــا عـرض بالذين شغلتهم الغنـائم فنسـوا أمـر رسـول الله

---

(٤١) الأعراف : ٣٤ .
(٤٢) الإسراء : ١٨ .

- ﷺ - امتدح الذين ثبتوا يومئذ يدافعون معه وعنه - ﷺ - فقال عز وجل : (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) وقد أبهم الثواب الذى أعده لأولئك المؤمنين تعظيما له ، فقال تبارك وتعالى : (وسنجزى الشاكرين) فهذه جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها ووعد بالمزيد عليه ، وفى تصديرها بالسين وإبهام الجزاء دلالة على فخامة شأن ذلك الجزاء ، المعد لهؤلاء الشاكرين ، وكونه بحيث لا يحيط به الوصف ، ويضيق عنه نطاق البيان ، قال عز وجل : « **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** »(٤٣) ومن شكر الله سعيه فقد أعد له جزاء عظيما ، لا يمكن إدراكه ، ولا يتأتى بيانه .

ولا يخفى عليك أن (الدنيا) و (الآخرة) صفتان قد حذف موصوفهما ، والتقدير : ومن يرد ثواب الحياة الدنيا .. ومن يرد ثواب الحياة الآخرة .. وقد كثر هذا الحذف ، حتى صارت الصفتان من الصفات الغالبة ..

كما لا يخفى عليك أيضا حذف المضاف فى قوله تعالى : (نؤته منها) فى الموضعين ، إذ المراد : نؤته شيئا من ثواب الدنيا إن شئنا ... ونؤته من ثواب الآخرة ما نشاء حسبما جرى به قلم الوعد الكريم ...

اللهم اجعلنا من الصابرين الشاكرين ، الذين يريدون ثواب الآخرة ، ويزهدون فى الدنيا ، فلا يركنون إليها ، ولا يغترون بمتاعها وزخرفها ، « **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا** »(٤٤) .

---

(٤٣) الإسراء : ١٩ .
(٤٤) النساء : ٧٧ .

(٣)

قال تعـالى : « **آلـم • تلك آيات الكتاب الحـكيم • هـدى ورحمة للمحسـنين • الذين يقيمـون الصـلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخـرة هم يوقنـون • أولئـك على هـدى من ربهم وأولئـك هم المفلحـون • ومن النـاس من يشـترى لهو الحديث ليضـل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هـزوا أولئـك لهم عـذاب مهـين • وإذا تتـلى عليـه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعهـا كأن فى أذنيـه وقـرا فبشـره بعـذاب أليم • إن الذين آمنـوا وعمـلوا الصـالحات لهم جنـات النعيم • خالدين فيها وعد الله حقـا وهو العـزيز الحكيم • خلق السموات بغير عمـد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميـد بكم وبث فيهـا من كل دابة وأنزلنـا من السـماء مـاء فأنبتنـا فيهـا من كل زوج كـريم • هـذا خلـق الله فأرونى مـاذا خلـق الذين من دونه بل الظـالمون فى ضـلال مبين** » لقمان ١ – ١١ •

عند تنـاولنا للآيات الكريمة من أول سـورة البقـرة تحـدثنا عن فواتح السـور ، فذكـرنا عدد حروف الهجاء التى وردت فى هذه الفواتح ، فهى نصف حـروف الهجاء ، وقد اشتملت على جميـع أجناسها ، ففيها النصف من كل جنس ، والحـروف التى وردت بالفـواتح هى التى كثر استعمالها فى نظم القرآن الكريم ، عن استعمال غيرها التى لم ترد ••

كما أشـرنا إلى طريقة النطق بهذه الفواتح ، وجلينا ما قاله العلمءا فى تعليـل افتتـاح السـور بها ، فقد قالوا : إنهـا للإيقـاظ والتبكيت وإلزام الحجـة ولفت الانظـار والتنبيـه على الإعجـاز ، ولم يقطعـوا بقـول فيهـا وإنما جعـلوها سـرامن اسـرار القـرآن ، حيث قـالوا : لكل كتاب سـر ، وسـر القـرآن فواتحـه(١) •

فقوله تعـالى : (آلم) جمـلة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم

(١) انظر ص ٨ وما بعدها •

مستقلة بنفسها ، نبهت إلى أنه الكلام المتحدى به ، ثم جاء قوله عز وجل : (**تلك آيات الكتاب الحكيم**) مقررا لهذه الجملة ومبينا لجهة التحدى ، ففصل بينهما لكمال الاتصال .

واسم الإشارة (تلك) مشار به إلى آيات السورة الكريمة ، وقد عبر به وهو موضوع للبعيد للدلالة على تعظيم الآيات الكريمة وبعد مكانتها ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد الحسى .

واضافة الآيات الى الكتاب الحكيم فى قوله تعالى : (**آيات الكتاب الحكيم**) يدل على التعظيم والتفخيم ، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه ، يقال : عبد الله ، وخادم الأمير ، فتعظم هاتان الكلمتان : عبد وخادم ، بإضافة الأولى إلى لفظ الجلالة ، وإضافة الثانية إلى الأمير ، وكانتا قبل الإضافة تخلوان من هذا المعنى ، بل كان فيهما معنى الذل والهوان والتحقير ..

ونجد أن كلمة (عبد) قد سمت وعظمت فى آيات الذكر الحكيم بإضافتها إلى أسماء الله تبارك وتعالى ، ولنقرأ الآيات الكريمة : « **قال إنى عبد الله ... وانه لما قام عبد الله يدعوه ... وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ...** »(٢) .

ولله در القائل :

ومما زادنى شرفا وتيها ... وكدت باخمصى اطا الثريا
دخولى تحت قولك : يا عباد ... وان جعلت احمد لى نبيا

وفى قوله تعالى : (**الكتاب الحكيم**) مجاز عقلى ، لأن الحكمة فى الحقيقة ليست وصفا للكتاب ، وإنما هى وصف لقائله عز وجل ، فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز ، كقولك : سار

(٢) الآيات بالترتيب : مريم : ٣٠ ، الجن : ١٩ ، الفرقان : ٦٣ .

الطريق ، وصـام النهار ، فكذلك وصف الشىء بغير ما حقـه أن يوصف به ، ونحو ذلك قولهم : الأسـلوب الحكيم والضـلال البعيد ، والرجـل العدل ، فالحكمة فى الحقيقة ليست وصفا للأسـلوب ، وإنما هى وصف لصاحبه ، والبعد ليس وصفا للضـلال بل هو وصف للضـال ، والعـدل ليس وصفا للرجـل ، بل وصف لأقـواله وأفعاله ، فالأصـل أن يقـال : رجل ذو عدل ، كما يقال : رجل ذو رأى ..

وتنكير (**هـدى ورحمـة**) للتعظيم ، والدلالة على كمال الهـداية والرحمـة ، أما كونه رحمـة للمحسنين ، فهذا جلى لا يحتـاج إلى بيان ، قال تعـالى : « **وننزل من القـرآن ما هو شـفاء ورحمـة للمؤمنين** »(٣) وأما كونه هدى لهم والمحسنون مهتدون ، فالمعنى : أن فيه زيادة هـدى لهم ، واستدامة عليه ، كما يقال للغنى : أغناك الله ، وللعزيز : أعزك الله ، وللكريم : أكـرمك الله ، والمعنى : زادك الله غنى وعـزة وكـرامة ، وأدام ذلك لك ، فالمـراد طلب الزيادة والدوام لمـا هو ثابت فى الغنى والعـزيز والكـريم ..

وفصـل قـوله تعـالى : « **الذين يقيمـون الصـلاة ويؤتـون الزكاة وهم بالآخـرة هـم يوقنـون** » عما قبـله للاستئناف البيـانى ، حيث تضمنت الآيات السابقة سؤالا ، ووقعت هذه الآية جوابا له ، وكأن سائلا سـأل : من هم هؤلاء الذين جعـل القـرآن لهم هـدى ورحمـة ؟ فجاء الجواب : هم الذين يقيمون الصـلاة ويؤتون الزكاة ..

وقد حذف المسند إليـه (هم) فى صدر الاستئناف ، كما حذف فى قوله تعـالى : « **يسبح له فيهـا بالغـدو والآصـال ٠ رجال لا تلهيهم تجـارة ولا بيـع عن ذكر الله ...** »(٤) ، إذ التقدير : المسبح رجال ، أو يسبحه رجال ، فحذف المسند إليـه أو المسند فى صدر الاستئناف ،

(٣) الإسـراء : ٨٢ .
(٤) النـور : ٣٦، ٣٧ .

وهذا على قــراءة من قــرأ ببناء الفعــل (يسبح) للمفعول ، وأما على قراءة من قرأ ببنــائه للفاعل فإن (رجال) فاعل (يسبح) ولا حــذف عندئذ ، بل هى جملة واحدة مكونة من الفعل والفاعل : يسبح له رجال ، كما هو واضح ..

والســر البلاغى وراء الحذف فى الآية الكريمة أن يتصــل الموصول وصلته (الذين يقيمــون) بالمحســنين فى اللفظ ، ، فهــذا الاتصــال اللفظى يبرز المحسنين ويصــورهم ممتثلين قائمين بهذه الأعمــال التى استحقوا بها الفــلاح والفــوز(٥) ..

وفى مجىء صــلة الموصول أفعــالا مضــارعة (يقيمون .. يؤتون .. يوقنــون) دلالة على تجدد تلك الأعمــال والأفعــال من المحسنين ، واستمرارهم على تحقيقها ، وذلك لأن الفعــل المضــارع يدل على التجدد والاستمــرار ..

واقتصــر على ذكــر إقامة الصــلاة ، وإيتــاء الزكاة ، والإيقــان بالآخــرة لعظم هذه الأمــور ، وأهميتها ، وفضــل الاعتداد بها ، فجعلت لذلك بمنزلة الجميــع ، ومن أتى بها كان آتيــا بغيرها ، وكما قالوا : (كل الصيد فى جــوف الفــرا)*

وقد قدم المسند إليــه فى قوله تعالى : **(وهم بالآخرة هم يوقنون)** على خبره الفعــلى ، كما قدم الجار والمجــرور (بالآخــرة) وأعيــد الضمير (هم) للتأكيد وتقــوية الحكم ، لأن الإيقــان بالآخرة من الأمور الغيبيــة التى يحتاج إثباتها إلى توكيد وتحقيق ، وأما الصــلاة والزكاة ، فليس الأمــر فيهما كذلك ...

---

(٥) هذا ولك أن تجعل الموصول (الذين يقيمون) صفة كاشفة للمحسنين أو بدلا منه أو عطف بيــان ، ولك أن تجعــله منصوبا بفعل محذوف على القطع ، والأولى أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف ، كما أوضحنا

*

وقد تقدم عند حديثنا عن قوله تعـالى : **(وبالآخـرة هم يوقنون)** فى سـورة البقـرة أن تقـديم الجـار والمجـرور (بالآخـرة) أفـاد الاختصاص ، فإيقانهم مقصور على حقيقـة الآخـرة ، لا يتعداها إلى خـلاف حقيقتها ، وهو ما عليـه أهل الكتاب الذين لم يؤمنـوا ، كما أفـاد تقـديم المسند إليـه (هم) على خبره الفعـلى (يوقنـون) أن اختصـاص الإيقـان بالآخـرة مقصـور عليهم لا يتجـاوزهم إلى الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب ..

أما التقديم هنا فلم يفد اختصاصا ، وإنما أفاد المبالغـة فى التوكيد وتقـوية الحكم ـ كما ذكـرنا ـ ويرجع ذلك إلى ما اقتضـاه السياق فى سـورة البقـرة من تعريض بأهل الكتاب وإبطال اعتقادهم وزعمهم فى الإيقـان بالآخرة حيث قالوا لن تمسنا النـار إلا أياما معدودات ، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هـودا أو نصـارى ، ولم يقتض السياق هنا ذلك التعـريض ، وبذا يتضـح لنـا أن دلالة التقـديم على الاختصاص خاضعة لمـا يقتضيه السياق وقـرائن الأحوال فيـه ..

وفى قوله تعـالى : (يقيمـون) مجـاز ، إما مجـاز مرسـل ، وإما استعارة تبعيـة ، وقد سبق إيضـاح ذلك عند حديثنا عن آيات سورة البقـرة ، كما أوضحنا هنـاك معنى الصـلاة ، والمـراد منها ، فعـد إليـه وتأمـله(٦) ..

(أولئـك على هـدى من ربهم وأولئـك هم المفلحـون)

عبر باسم الإشـارة الموضوع للبعيد (أولئـك) للدلالة على التعظيم وعلو المـكانة ، حيث نزل البعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، وقد فصلت هذه الآية عما قبلهـا للاستئناف البيـانى ، حيث وقعت جوابا لسـؤال

---

(٦) ارجع إلى ص ١٤، ١٥ .

قـد انبعث من الآيات قبلهـا ، وكان سـائلا سـأل : ما جـزاء هـؤلاء المحسنين ، الذين جعـل القـرآن لهم هـدى ورحمـة ، واتصفوا بتلك الصفات ؟ فجاء الجواب : **(أولئك على هدى من ربهم ...)** .

وفضلا عما يفيده اسم الإشـارة (أولئـك) من الدلالة على التعظيم وبعد المكانة ، فإنه يدل على أن المشـار إليهم جديرون من أجل صفاتهم المتقدمة باكتسـاب الجـزاء الوارد عقب اسم الإشـارة ، حيث صـاروا أهـلا له بما تقدم لهم من صفات ، وهذا شـأن اسم الإشـارة عندما يرد بعد صفات المشـار إليـه المتعددة ، ثم يجىء الجـزاء عقبه فيسند إليه ، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق(٧) ...

وفى قوله تعـالى : **(أولئـك على هـدى)** استعارة تبعيـة فى الحرف (على) حيث شبه تمسـك المحسنين بالهـدى وتمكنهم منـه ، باستعـلاء الراكب ما يركبه بجامع التمكن والاستقرار ، ثم استعير للمشبه الحرف الموضوع للاستعلاء (على) وفى إيثـار التعبير بالحرف (على) دلالة على التعظيم والتكريم ، والرفعـة والسمو ، وذلك لأنه موضـوع للدلالة على الاستعـلاء ..

ولذا وجدناه فى القـرآن الكريم مع الهـدى ، يصـور ويبرز مكانة المهتدين وبعد منزلتهم ، ووجدنا مع الضـلال والكفر ، والطغيان والغى ، الحـرف (فى) حيث يصـور انغماس الـكفار والضـالين فى كفـرهم وضلالهم ، ويبرز هبوطهم وسقوطهم فى مهاوى الضـلال والغى والعناد ، ولننظـر فى الآيات الكريمة : « **وادع إلى ربك إنك لعلى هـدى مستقيم ... ولو شـاء الله لجمعهم على الهـدى ... أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى .. وإن كانوا من قبل لفى ضـلال مبين ... قال المـلأ من قـومه إنا لنراك فى ضـلال مبـين ... الله يستهزىء بهم ويمـدهم**

---

(٧) ارجع إلى الصفحات : ١٩، ٤٦، ٧٧، ٧٨ .

فى طغيانهم يعمهون ··· وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ·· وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ··· »(٨) ، نجد أن التعبير بالحرف (على) قد أفاد التمكن من الهدى تمكن استعلاء وسمو وبعد مكانة ، وأن التعبير بالحرف (فى) قد أفاد التمكن من الضلال والطغيان والغى تمكن انحطاط وسقوط ، وهبوط إلى المهاوى ، تحقيرا للكفرة والضالين وحطا من شأنهم ··

وتنكير (هدى) يدل على التعظيم ، وأنه نوع مبهم من الهدى ، لا يعرف ولا يدرك كنهه ، ولا يحاط به ، ولذا وصف بالجار والمجرور (من ربهم) مبالغة فى التعظيم والتفخيم والإبهام ··

وقد وصل بين جملتى (**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**) للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، ووجود المناسبة ، وأما قوله تعالى : « **أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** »(٩) ، فقد فصل بينهما لوجود المانع الذى يمنع الوصل ، إذ الجملة الثانية مقررة لما فى الأولى ، ومؤكدة لمعناها ، فبينهما من التداخل والتشابك والاتصال الداخلى ما يمنع الوصل بالواو ، ولذا فصل بينهما لكمال الاتصال ··

وقد قصر الفلاح على اسم الإشارة (أولئك) المشار به إلى المحسنين قصرا حقيقيا ، وطريق القصر تعريف الخبر بأل التى للجنس فالفلاح مقصور على المحسنين لا يتعداهم إلى غيرهم قصر صفة على موصوف ، و (هم) ضمير فصل مؤكد للاختصاص ·

---

(٨) الآيات بالترتيب : الحج : ٦٧ ، الأنعام : ٣٥ ، العلق : ١١ ، آل عمران : ١٦٤ ، الأعراف : ٦٠ ، البقرة : ١٥ ، الأعراف : ٢٠٢ ، سبأ : ٢٤ ·

(٩) **الأعراف : ١٧٩ ·**

وتكرار اسم الإشارة (أولئك) يدل على اختصاصهم بكل صفة من الصفتين (الهدى) و (الفلاح) على حدة ، ويشعر بكمالهما فى المحسنين ، وأن الصفة الواحدة منهما لو انفردت لكفت مميزة لهم ، وأغنت عن الأخرى ..

(ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) .

الواو فى قوله تعالى : **(ومن الناس)** واو القصة ، وهى التى تعطف عدة جمل مسوقة لغرض على عدة جمل مسوقة لغرض آخر ، ويشترط فيها المناسبة بين غرضى الكلام ، لا بين جمل القصتين ، فهى عاطفة لقصة هذا الكافر الذى يشترى لهو الحديث ، على قصة أولئك المحسنين الذين ازدادوا هدى ، واختصوا بالفلاح ...

وقد نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث « وكان يتجر إلى فارس ، فيشترى كتب الأعاجم ، فيحدث بها قريشا ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ..

وقيل : كان يشترى المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام ، إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه وأسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والإسلام ، وأن تقاتل بين يديه »(١٠) .

وعندما نتأمل آيات الذكر الحكيم ، وكذا أحاديث النبى - ﷺ - لا نجد إفصاحا وتحديدا لهؤلاء المعاندين ، بل نجد تعميما ، ولنقرأ : **« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على**

---

(١٠) الكشاف ٣/٢٢٩ .

ما فى قلبه وهو الد الخصام ... ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ... ومن الناس من يعبد الله على حرف ... »(١١) ، ونجد فى الحديث كثيرا ، نحو قوله – ﷺ – : ما بال أقوام يفعلون كذا ... ولعل سبب ذلك يرجع إلى ترغيب هؤلاء فى الإسلام ، واستمالتهم إليه ، لأن فى تخصيصهم ومواجهتهم بما يصنعون ، تنفيرا لهم ، فيزدادون بعدا عن الحق والخير ..

والمراد بالشراء فى قوله تعالى : (**يشترى لهو الحديث**) إما حقيقته على ما روى من شراء النضر كتب الأعاجم أو القينات ، أو شراء غيره مثل هذه الأشياء ، وإما أنه استعارة تبعية فى الفعل (يشترى) حيث استعير الشراء للاستبدال والاختيار ، ثم اشتق منه (يشترى) بمعنى يستبدل ، كما فى قوله تعالى : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** »(١٢) ، وقوله عز وجل : « **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا** »(١٣) ، والمعنى عليه : ومن الناس من يختارون حديث الباطل ويستحبونه ويستبدلونه بحديث الحق ..

والإضافة فى قوله تعالى : (لهو الحديث) بيانية بمعنى (من) لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره ، فبين بإضافته إلى الحديث ، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى (من) التبعيضية ، كأنه قيل : ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى هو اللهو منه ، وعلى كل فإن الغرض من الإضافة تحقير المضاف إليه ، فهو حديث لهو وباطل ، وليس حديث حق وخير ..

وفى قوله تعالى : (**ليضل عن سبيل الله**) حذف مفعول (يضل)

---

(١١) الآيات بالترتيب : البقرة : ٢٠٤،٨ ، والحج : ١١ .
(١٢) البقرة : ١٦ .
(١٣) آل عمران : ١٧٧.

وتقـديره : ليضـل الناس ، وهذا الحذف يشعر بان المضـل يبذل قصارى جهـده فى الإضـلال ، فهو لا يدع احـدا يظفـر به إلا تفنن فى صـده وإضـلاله عن سبيل الله تعـالى ..

وقـرىء (ليضل) بفتح اليـاء مضارع (ضل) اللازم ، والمعنى : ليثبت على ضـلاله ، ويزداد ضـلالا على ضـلال ، أو على وضع (يضل) بفتح اليـاء ، موضع (يضـل) بالضم ، من جهـة أن من أضـل غيره يكون ضـالا لا محالة ، فدل بالرديف وهو الضـلال على المردوف وهو الإضـلال ، ووجه الدلالة أن المـراد بالضـلال : الضـلال المضاعف فى شـأن من جانب سبيل الله تعـالى وتركه رأسـا ، وهذا الضـلال لا ينفك عن الإضـلال ، وكذلك العكس ..

والجار والمجـرور فى قوله تعـالى : (بغـير عـلم) يتعلق إما بقوله تعـالى : (يشترى) والمعنى : يشـترى لهو الحديث حـال كونه غير عـالم بحال ما يشتريه ، أو غير عالم بالتجـارة وغير بصير بها ، حيث يستبدل الضـلال بالهدى والباطل بالحـق ، على حد قوله تعالى : **« فما ربحت تجـارتهم وما كانوا مهتدين »**(١٤) أى : وما كانوا مهتدين للتجـارة ، بصـراء بها ..

وإما متعلق بقوله تعـالى : (ليضـل) ، والمعنى : ليضـل عن سبيل الله تعـالى جاهلا أنها سبيل الله ، أو جاهلا أنه يضـل عنهـا ، أو جاهلا الحـق ..

وفى إيثـار التعبير بالفعـل المضـارع (يشترى ... ليضـل ... ويتخـذها ..) ما يدل على مواصـلة العنـاد والاستكبار ، والصـد عن سبيل الله ، حيث يدل المضـارع على التجدد والاستمرار ..

---

(١٤) البقـرة : ١٦ .

هــذا وعند التأمل فى نظم الآية الكريمة يتضح لنــا أنه قد بولغ فى تصــوير عناد من يشترى لهو الحديث ، واستكباره ، وإعراضــه عن الحق ، من جهات عــدة :

١ ـ أن الذى يشتريه إنما هو اللهو من الحديث ، فقد ترك جانب الخير والحق ، وأقبل على شراء اللهو والباطل منه ٠

٢ ـ الغــاية من الشراء هى الضــلال والإضــلال وصد الناس عن القرآن ودين الإســلام ٠٠

٣ ـ جهــله بهذا الذى يصنعه (بغير عــلم) فقد أصم أذنيــه ، وأبى سماع الحق والانصياع له ٠٠

٤ ـ اتخاذه سبيل الله وهى الإســلام والقــرآن هزوا ، فهو يهزأ بها ، ويسخر منهــا ، ويبغيها عوجا ، وقد وقف نفســه لهــذا ، واتخذه طريقا لا يحيد عنــه ٠٠

ولذا كان جزاؤهم الإبعــاد عن رحمــة الله ، واستحقاق العــذاب المهين (**أولئــك لهم عذاب مهــين**) ، فالتعبير باسم الإشــارة الموضوع للبعيد (أولئــك) يدل على بعد المنزلة فى الشــر والانحطاط والطرد من رحمــة الله ، تنزيلا للبعد المعنــوى فى التحقير والذم منزلة البعــد الحسى ٠٠

كما يدل اسم الإشــارة (أولئك) على أن المشــار إليــه قد استحق الجزاء المذكور بعد ، وهو العذاب المهين من أجل تلك الصفات المتقدمة ، الشــراء ، والإضــلال عن سبيل الله ، واتخاذها هــزوا ٠٠

ولا يخفى عليــك أن الجمــع فى اسم الإشــارة والضمير (**أولئك لهم**) باعتبــار معنى (من) والإفــراد فى قوله تعــالى : (يشترى ٠٠ ليضــل ٠٠ ويتخذها ٠٠ تتلى ٠٠ ولى ٠٠ يسمعها ٠٠ أذنيــه ٠٠ فبشره) باعتبــار لفظهــا ٠٠

مهين

وفى تقديم الجـار والمجرور فى قوله تعـالى : **(لهم عذاب مبين)** ضـرب من التوكيـد ، والمبالغـة فى استحقاقهم العـذاب ، وقد نـكر (عـذاب) للدلالة على التعظيم والتهـويل ، كما يدل على ذلك أيضـا وصفه بقوله تعالى (مهين) أى : لهم عذاب عظيم هائل بسبب استكبارهم وصـدهم عن سبيل الله ..

(وإذا تتـلى عليـه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيـه وقـرا فبشـره بعـذاب أليم) .

عطفت هذه الآية على قـوله تعـالى (يشـترى لهو الحديث) ، والمعنى : ومن الناس من يشترى لهو الحديث ويولى مستكبرا إذا تليت عليـه آياتنا ..

وعبر بإذا للدلالة على تحقق وقـوع الشـرط ، فإن تلاوة الآيات عليـه قد تحققت ، ومع ذلك لم يسمع ، وولى مستكبرا ، وهـذا يشعـر بشدة العنـاد والإصـرار على التولى والإعراض ..

والتعبير بالفعـل المضـارع (تتلى) وبناؤه للمفعول ، للدلالة على تجدد التـلاوة واستمرارها ووقوعها من جهـات متعددة ، إذ المضـارع يدل على التجدد والاستمرار ، وبناؤه للمفعول وحذف الفـاعل يجعـل النفس تذهب كل مذهب فى تقـدير الفـاعل المحذوف ، فهو إما النبى - ﷺ - وإما المؤمنون - الصحابة رضى الله عنهم - وهذا يعنى أن التلاوة أتتهم من جهات عـدة ، وكانت مستمرة متجـددة ، فلا عذر عندئذ لمن أعـرض وتولى مستكبرا ..

كما أن تقييد الفعـل (تتلى) بالجـار والمجرور (عليـه) وتقديم هـذا القيد على نائب الفاعل (آياتنا) يقطع أى عذر لهم فى الإعراض، فالآيات لم تتـل فقط ، وإنما تليت عليـه ، وقرعت أذنيـه ، ولا سبيل أمامه إلا الإذعان والقبول أو العذاب الشديد إن تولى وأعرض ..

وإضـافة الآيات إلى (نا) العظمة فى قوله تعـالى : (**آياتنـا**) للدلالة على التعظيم والتفخيم ، كما أن التعبير عن الإعراض بالفعـل المـاضى (ولى مستكبرا) يدل على تحقق وقوعه ، ثم أكد هـذا الوقوع بالحالين : (**مستكبرا كأن لم يسمعها**) ، فالحال الأولى تدل على المبالغة فى التكبر ، لأن الاستفعال بمعنى التفعـل ، والحال الثانية تدل على أنه قد أصم أذنيـه ، وأبى إلا التولى والإعـراض ٠٠

وقد شبهت حـال المتكبر فى إعراضـه تكبرا وقد سمـع الآيات ، بحال من لم يسمعهـا ، وذلك فى قوله تعـالى : (**ولى مستـكبرا كأن لم يسمعها**) ، ويشعر هـذا التشبيه بأن من سمع الآيات لا يتصـور منه التولى والاستكبار ، اللهم إلا إذا أصم أذنيـه ، وصـارت حـاله حال من لم يسمـع ، وذلك لمـا فى الآيات من الأمـور الموجبـة للإقبـال والخضـوع ٠٠

ولذا رأينا المشركين يبالغون فى الإعـراض عن القـرآن وصد الناس عنـه ، والامتنـاع عن سماعه ، حتى لا يأخـذهم ما فيـه وهم أرباب الفصاحة والبيـان ، وقد صـور القـرآن رفضهم سماعه ، ولغوهم عند تلاوته حتى لا يسمع النـاس ، فقال تعـالى : (**فأعـرض أكثرهم فهم لا يسمعون ٠ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعـونا إليـه وفى آذاننا وقـر ومن بيننـا وبينـك حجـاب ٠٠٠ وقال الذين كفـروا لا تسمعوا لهـذا القـرآن والغـوا فيـه لعلكم تغلبـون** »(١٥) ٠

وقوله تعـالى : (**كأن فى أذنيـه وقـرا**) تشبيه آخـر لحال من أعـرض متكبرا بحال من فى أذنيـه صمم مانع له من السماع ، وأصـل الوقـر : الحمـل الثقيـل ، استعير للصمم ، ثم غلب حتى صار حقيقـة

---

(١٥) الآيات بالترتيب : فصلت : ٤، ٥، ٢٦ ٠

فيــه ، وتشديد نون (كأن) الثانية يناسب ثقــل الوقــر ، الذى صــار حقيقــة فى صمم الاذنين ..

ونلاحظ الترقى فى ذم هؤلاء المتكبرين ، حيث شبهوا أولا بحال من لم يسمــع الآيات ، ثم شبهوا ثانيــا بحــال من فقد السمع كليــة ، وصــار فى أذنيــه وقــر ، مبالغة فى الذم والتقبيح ..

وقد فصلت الجمــلة الثانية **(كأن فى أذنيــه وقــرا)** عما قبلهــا **(كأن لم يسمعهــا)** لــكمال الاتصــال ، لأن الثانيــة مقــررة ومؤكدة للأولى ، أو منزلة منها منزلة البدل أو عطف البيــان ..

والأمــر فى قوله تعــالى : **(فبشره بعذاب أليم)** للإهانة والتحقير والإذلال ، ومثــله قوله تعــالى : **« ذق إنك أنت العزيز الكريم »(١٦)** وقوله عــز وجــل : **« بشــر المنافقــين بأن لهم عــذابا أليمــا »**(١٧) ، والعذاب الأليم ينذر ولا يبشــر به ، والحميم والغســلين ورضف جهنــم لا يذاق ، وإنما يغص ، ففى (بشــر وذق) استعــارة تهكمية عنادية ، وتنكير (عــذاب) ووصفه بقوله تعــالى : (أليم) يدل على التعظيم والتهــويل ، أى : فبشره بعذاب عظيم هائل ، لا يدرك كنهه ، ولا يحيط به الوصف لإبهــامه وفخامته ..

(إن الذين آمنـــوا وعمــلوا الصــالحات لهم جنــات النعــيم . خــالدين فيهــا وعد الله حقــا وهو العــزيز الحكيم) .

بيان لحــال المؤمنين بآيات الله عقب بيــان حال الكافرين بهــا ، وقد فصــل عما قبله للاستئناف البيــانى ، وكأن ســائلا سأل : إن كان هــذا حال الكافرين ، الذين استكبروا وأعرضوا عن آيات الله ، فما حال

---

(١٦) الدخــان : ٤٩ .
(١٧) النســاء : ١٣٨ .

للمؤمنين بهـا ؟ وما جـزاؤهم عند ربهم ؟ فجاء الجواب : **(إن الذين آمنـــوا ...)** .

وقد أكد الخبر بإن تحقيقـا لوعد الله تعـالى ، ولم يلتفت فى هذا التأكيد إلى حال من أحوال المخاطب ، لأن حال المخاطب لا يعول عليها دائمـا فى إلقـاء الخبر ، بل قد يعـول على غيرها ، كما هنـا ، فقـد أكد الخبر لتحقيق الوعد ، وقد يؤكد لتحقيـق الوعيد ، كقـوله تعـالى : **« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لهـا واردون »**(١٨) ولغـرابة الخبر كقوله تعـالى : **« فلمـا أتاها نودى من شـاطىء الواد الأيمن فى البقعـة المبـاركة من الشجـرة أن يا مـوسى إنى أنا الله رب العـالمين »**(١٩) إلى غير ذلك من الأمـور التى يعـول عليها فى توكيد الخبـر(٢٠) ..

وقد جاء المسند إليـه اسم موصول (الذين) حيث تومىء جمـلة الصـلة **(آمنـوا وعمـلوا الصـالحات)** إلى وجه بناء الخبر ، فمن قرأ جمـلة الصـلة هذه ، أدرك نوع الخبر ووقف عليـه ، وعلم أنه جـزاء حسن ، لأن الصلة إيمان وعمل صالح ، والجزاء من جنس العمل ..

وحذف الموصوف فى قوله تعـالى : **(وعمـلوا الصالحات)** ، إذ التقدير : وعملوا الأعمـال الصـالحات ، وقد كثر حذف هذا الموصوف حتى صارت الصفة (الصالحات) من الصفات الغالبة ..

وإضـافة الجنات إلى النعيم فى قوله تعـالى : **(جنات النعيم)** ، باعتبـار اشتمالها عليـه ، كقولنا : كتب البـلاغة وكتب النقد ، وتدل هـذه الإضـافة على كثرة النعيم وشهرته ، كما تدل بطـريق برهـانى

---

(١٨) الأنبيـاء : ٩٨ .
(١٩) القصص : ٣٠ .
(٢٠) ارجع إلى كتابنا علم المعانى : ١/٥٠ .

على أن للمؤمنين نعيم الجنـات ، لأن من ملك الجنات ملك نعيمها ؛ ولذا كانت إضـافة الجنات إلى النعيم (جنـات النعيم) أبلغ من إضافة النعيم إليهـا في نحو قولنا : نعيم الجنـات ، إذ لا يستدعي هذا القول أن تكون نفس الجنـات ملكا لهم ، فقد يتنعم بالشيء غير مالكه ..

وقوله تعـالى : (**وعد الله حقـا**) مصدران مؤكدان ، الأول مؤكد لمـا هو كنفسـه ، والثـانى مؤكد لغيره ، لأن قوله تعـالى : (لهم جنات النعيم) فى معنى : وعـدهم الله جنـات النعيم ، فأكـد معنى الوعـد بالوعد ، وأما (حقـا) فدال على معنى الثبـات ، وقد أكد به معنى الوعد ، ومؤكدهما جميعـا واحد ، وهو قوله تعـالى : « **لهم جنـات النعـيم** »(٢١) ..

وقد قصـرت العـزة والحكمة على الله تعـالى قصرا حقيقيا تحقيقيا فى قوله تعـالى : (**وهو العـزيز الحكيم**) وطريق القصر تعريف المسند بأل التى للاستغـراق ، كما يقال : زيد الشجاع وعمـرو الكريم فى قصر الشجاعة على زيد ، والكرم على عمـرو ، مع ملاحظـة أن القصـر في الآية الكريمة قصـر حقيقى تحقيقى - كما ذكـرنا - وأما فى المثـالين فهو قصـر حقيقى ادعـائى ، أو قصـر إضـافى ، حسبما يظهر لنـا من السياق وأحوال المخاطب فيـه ..

وختـام الآية الكريمة بالعـزة والحكمة يتناسب ويتلاءم مع ما ذكره الله عـز وجـل فى الآيات من وعيد للكفار ، ووعد للمؤمنـين ، فمعنى (العـزيز) الذى لا يغلبـه شيء ولا يعجـزه ، فيمنع من إنجـاز وعده وتحقيق وعيـده ، بل يقدر على الشيء وضده ، فيعطي النعيم من شاء والبؤس من يشـاء ، ومعنى (الحكيم) الذي لا يفعـل إلا ما تقتضيه

---

(٢١) انظر الكشاف : ٢٣٠/٣ .

الحكمة والعدل ، ويعـرف هذا التناسب فى البديع بتشـابه الأطراف ، والجمـلة ـ جملة (**وهو العـزيز الحكيم**) ـ تذييل مقـرر لمـا ذكـر فى الآيات الكريمة من وعد ووعيد ..

(خلق السموات بغير عمـد ترونهـا والقى فى الأرض رواسى أن تميـد بكم وبث فيهـا من كل دابة وأنزلنـا من السماء ماء فأنبتنـا فيها من كل زوج كـريم . هـذا خلق الله فأرونى ماذا خلـق الذين من دونه بل الظـالمون فى ضـلال مبـين) .

لمـا ختمت الآيات السابقة بقوله تعـالى : (**وهو العـزيز الحكيم**) استانف عـز وجل لبيـان مظاهر عـزته وحكمته ، والاستشهاد بما فصل على كمال قـدرته وكمال علمـه تعـالى ، وهو استئناف بيـانى حيث تتجلى عـزة الله تعـالى ، وتظهر حكمته التى هى كمال العلم ، فيما ذكر مما أبدعـه عز وجـل ، وخلقه فأحسن خلقـه ، وكان سـائلا سـأل : فيم تتجلى عـزته تعـالى وحكمته ، وما مظاهرها فى الكون ودلائلها ؟ فيأتى الجواب : تتجلى فى خلق السموات بغير عمـد ..

وقد توالت تلك الجمل الخبرية : (خلق السموات ... **والقى فى** الأرض ... وبث فيهـا ... وأنزلنـا) ، ووصـل بينها بواو العطف تفصـيلا لمظاهر القـدرة ، وإتقـان الصنع ، ومجىء أفعـالها أفعـالا ماضية يدل على تحققها واستقرارها ، ويشعر بظهورها ووضوحها لمن أراد أن يتأمل ويتدبر ، والقى السمع وهو شهيد ..

وقوله تعـالى : (ترونهـا) فصـل عما قبله للاستئناف البيانى ، وكأن سـائلا سـأل : ما الدليـل على كون السموات بلا عمـد ؟ **فأجيب** (ترونهـا) فهو مسوق لإثبات كونها بلا عمـد ، إذ لو كانت لها عمـد لرأيناها ، **والضمير فى (ترونها) على هذا راجع إلى السموات ..**

ويصح أن تكون جملة (ترونها) صفة لعمد ، والضمير على هذا يكون راجعا إلى (عمد) لا إلى السموات ، والمعنى : خلق السموات بغير عمد مرئية لكم ، وهذا يشعر وينبىء بأن الله تعالى عمدها بعمد لا ترى ولا تدرك ، وهى عمد القدرة الإلهية ، فتبارك الله أحسن الخالقين ..

ويشعر حرف الجر (فى) فى قوله تعالى : (**والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم**) بتغلغل الجبال داخل الأرض ، وتمكن الأرض من الجبال تمكن الظرف من المظروف ، وقوله تعالى : (**أن تميد بكم**) تعليل للإلقاء ، والمعنى : والقى فى الأرض رواسى شامخات كراهة أن تميد بكم ، أو لئلا تميد بكم ..

والتعبير بالبث فى قوله تعالى : (**وبث فيها من كل دابة**) وما فيه من معنى الإثارة والتفريق والانتشار ، قال تعالى : « **وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا** »(٢٢) ، وقال عز وجل : « **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث** »(٢٣) ، يدل ذلك على مراد الله عز وجل من الخلق ، فإنه الانتشار فى الأرض ، وعمارة الكون بالحركة الدائبة ، وعدم الركون للدعة والتكاسل والتواكل ، وهذا ما نجده فى قوله تعالى : « **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ...** »(٢٤) ، وقوله عز وجل : « **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** »(٢٥) .

---

(٢٢) الواقعة : ٥ ، ٦ .
(٢٣) القارعة : ٤ .
(٢٤) الجمعة : ١٠ .
(٢٥) الملك : ١٥ .

وعندما نتأمل نظم الآيتين الكريمتين نجد عدة التفاتات ، وراءها كثير من المعانى والأسرار البلاغية ، فقد التفت من الغيبة فى قوله تعالى : (خلق السموات ... والقى فى الأرض ... وبث فيها من كل دابة) إلى التكلم فى قوله عز وجل : (**وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها ...**) ويشعر هذا الالتفات بمزيد الاعتناء بأمر الإنزال والإنبات ، وذلك لتكررهما ، وتوقف الحياة وعمارة الأرض على الماء والنبات ، ولذا كان الالتفات ليسند الإنزال والإنبات إلى (نا) العظمة (أنزلنا .. فانبتنا) .

ثم التفت من التكلم فى قوله تعالى : (**وانزلنا من السماء ماء فانبتنا**) إلى الغيبة فى قوله عز وجل : (**هذا خلق الله**) ، وكان الأصل أن يقال : هذا خلقنا ، ونلحظ ما وراء هذا الالتفات من التصريح باسم الله الأعظم ، وما له من أثر فى تربية المهابة ، والإشعار بكمال القدرة وبديع الصنع ..

والتفت مرة أخرى إلى التكلم فى قوله تعالى : (فأرونى) وكان مقتضى الظاهر أن يقال : هذا خلق الله فأروه ، ونشعر بنبرة الوعيد والتحذير ، والتحدى والإعجاز ، وراء هذا الالتفات ، وكأنه التفات الغاضب المتوعد ..

وفى الآيتين التفات آخر من الخطاب فى قوله تعالى : (ترونها ... أن تميد بكم ... فأرونى ..) ، إلى الغيبة ووضع الظاهر موضع الضمير فى قوله تعالى : (**بل الظالمون فى ضلال مبين**) ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : بل أنتم فى ضلال مبين ، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين :

أولهما : أن الخطاب فى الآيتين عام ، وليس كل المخاطبين فى ضلال مبين ، بل الظالمون منهم ، فوجب الالتفات ، وحسن ..

ثانيهما : أن فى الالتفات ووضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا على الكفار ، ووسمهم بتلك الصفة ، صفة الظلم ، للدلالة على أنهم بكفرهم واضعون للشىء فى غير موضعه ، ومتعدون عن الحد ، وظالمون لأنفسهم ، وهذا ما صيرهم فى ضلال مبين ، وعما قليل سيجعلهم فى عذاب مهين ..

والتعبير باسم الإشارة (هذا) فى قوله تعالى : (**هذا خلق الله**) ، إشارة إلى ما ذكر من أفعال القدرة والإبداع ، فيه تجسيد للمعنويات ، وإبرازها فى صورة مشاهدة محسوسة ..

والأمر فى قوله عز وجل : (فأرونى) للتبكيت والإعجاز وإلزام الحجة عليهم ، وحثهم على تأمل ما يعبد من دون الله ، والوقوف على عجز تلك المعبودات ، وضعفها وضعتها ، قال تعالى : « **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** »(٢٦) .

والفاء فى قوله تعالى : (فأرونى) فاء الفصيحة واقعة فى جواب شرط مقدر ، والمعنى : إذا علمتم ذلك وتدبرتموه ، ووقفتم على شىء من آثارة القدرة الإلهية ، فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، ممن اتخذتموهم شركاء له ـ عز وجل ـ فى العبادة حتى استحقوا به عبوديتكم لهم ، والأمر والاستفهام للتبكيت والإعجاز وإلزام الحجة عليهم ـ كما ذكرنا ـ ..

ثم أضرب عن هذا التبكيت بتبكيت آخر فى قوله عز وجل : (**بل الظالمون فى ضلال مبين**) ، فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا

---

(٢٦) الحج : ٧٣ .

لما استحقوا به العذاب ، وهو ظلمهم وتعديهم - كما ذكرنا - وينبىء حرف الجر (فى) بانحطاط هؤلاء الظالمين ، وانغماسهم فى الضلال ، وهويهم إلى مهاوى الهلاك والعذاب ..

اللهم باعد بيننا وبين عذابك ، وقربنا من رحمتك ، وارزقنا فهما صحيحا لكتابك وسنة نبيك - ﷺ - وجنبنا الزلل ، واجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وذهاب همنا وحزننا ، واجعله شفيعا لنا يوم لقائك ، واغفر وارحم وأنت خير الراحمين ...

★ ★ ★

القسم الثانى

من هدى الحديث النبوى الشريف

١ - حديث : (الحلال بين والحرام بين ..)

٢ - حديث : (يا غلام إنى أعلمك كلمات ...)

٣ - حديث : (كنا مع رسول الله - ﷺ - فى سفر ...)

عن النعمـان بن بشـير - رضى الله عنهمـا - قـال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقـول : « الحـلال بين ، والحـرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمهـا كثيـر من النـاس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقـع فى الشبهات كـراع يرعى حـول الحمى يوشـك أن يواقعه ، الا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضـه محـارمه ، ألا وإن فى الجسـد مضغة إذا صلحت صـلح الجسـد كلـه ، وإذا فسدت فسـد الجسـد كلـه ، ألا وهى القلب » ... متفق عليـه .

يعـد هـذا الحـديث الشريف أحـد الأحاديث التى عليهـا مـدار الإسـلام ، وقـد عظـم العلمـاء أمـره ، فعـدوه رابـع أربعة أحاديث، تدور عليهـا الأحكام كمـا نقـل عن أبى داود وهى :

١ - هـذا الحـديث ..
٢ - حـديث « إنمـا الأعمـال بالنيـات .. » .
٣ - حـديث « من حسـن إسـلام المـرء تركـه مالا يعنيـه » .
٤ - حـديث « ازهـد فى الدنيـا يحبـك الله وازهـد فيمـا عند النـاس يحبـك النـاس » .

وقـد نظـم بعضهم ذلك فقـال :

عمـدة الديـن عنـدنا كلمـات
مسندات من قـول خيـر البريـة
اتـرك المشـبهات وازهـد ودع مـا
ليـس يعنيـك واعمـلن بنيـة

وعنـدما نتأمـل الحـديث لنـدرك ما فيـه من المـزايا والأسـرار البلاغيـة - وهـذا مـا يعنينـا - يتجـلي لنـا فيـه :

إيجـاز القصـر فى قـوله ـ ﷺ ـ « الحـلال بين والحـرام بين » فهـذا التعبيـر يـدل على معـان كثيـرة ، نحتـاج للإفصاح عنهـا إلى ألفـاظ وجمـل عـديدة ، فهـو يـدل على أن الحـلال والحـرام بينان واضحان جليـان يعرفهما كـل النـاس ، ولا يحتـاج أحـد من النـاس إلى من يعـرفه الحـلال والحـرام ولا عـذر لأحـد يحـل ما حـرم الله أو يحـرم ما أحـل ، لأن الحـلال والحـرام من الوضـوح بمـكان ، وهـذه المعـانى قـد أديت بأوجـز لفـظ وأبلغـه « الحـلال بين والحرام بين » فهـذا من جـوامع كلمـه عليـه الصـلاة والسـلام ..

وقـد أعيـد ذكـر المسـند (بـين) ولـم يكتف بذكـره أولا مع الحـلال ، فيقـل : الحـلال بين والحـرام ، وذلك للدلالة على المبالغة فى وضـوح كـل منهمـا وبيـانه ، وتميـزه عن الآخـر ، فالحلال بين متميـز عن الحـرام ، والحـرام بين متميـز عن الحـلال ، ومن أجـل ذلك أيضـا ، لم يعطف الحـرام على الحـلال عطف مفـرد على مفـرد ، ويخبـر عنهمـا بخبـر واحـد فيقـل : الحـلال والحـرام بينـان ..

ولا يخفى علينـا الطبـاق بين (الحـلال والحـرام) وهـذا الطبـاق ممـا يزيـد المعنى جمـالا ، ويثيـر النفس ، ويبعث فيهـا التأمـل والنظـر لإدراك ما وراء اللفظين ، وما ينبغى الالتزام به إزاء كـل معنى من المعنيـين ..

وفى قـوله : « وبينهمـا مشـبهات » نكـرت « المشـبهات » للدلالة على عظمهـا وخطورتها وخفـاء حكمهـا ، فـلا يدرى كثير من الناس أمن الحـلال هى أم من الحـرام ، ولـذا قـال : « لا يعلمها كثيـر من النـاس » وفى هـذا القـول حـذف للمضـاف ، والتقدير : لا يعـلم خطورتهـا وضررها ، أو لا يعـلم حكمها كثيـر من النـاس ، وهـذا

الحذف ينبىء بشدة خفائها وعظم ضررها ، وما ينبغى على الناس إزاءها من الحذر والحيطة ..

ونفى العلم عن الكثرة يدل على أن هناك قلة من الناس يعلمون حكمها ، وينبغى الرجوع إليهم فيها ، وهؤلاء هم الراسخون فى العلم ، وهم نفر قليل ، قال تعالى : « **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ..** »(١) .

وقد وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله : « فمن اتقى الشبهات » إذ الأصل : فمن اتقاها ، وذلك للمبالغة فى وجوب اجتنابها ، والحذر من الوقوع فيها ، ولذا استخدم فى التحذير لفظ التقوى (اتقى) وهو إنما يستخدم فى الأمور العظيمة ، قال تعالى : « **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ..** »(٢) وقال عز وجل : « **واتقوا النار التى أعدت للكافرين** »(٣) ..

وفى قوله : « استبرأ لدينه وعرضه » استخدم لفظ (استبرأ) للدلالة على المبالغة فى طلب البراءة ، يقال : استبرأت الشىء : أى طلبت آخره ، فالهمزة والسين والتاء للطلب ، يقال : استغفر أى : طلب المغفرة واستبرأ : طلب البراءة ، وفرق بين (استبرأ لدينه) وبرىء دينه ، كما أن زيادة اللام فى (لدينه) تدل على توكيد الحكم ، والمبالغة فى طلب البراءة ، وعطف العرض على الدين ينبىء بما يجب على الإنسان تجاه عرضه ، فواجبه أن يستبرىء

---

(١) النساء : ٨٣ .
(٢) الحديد : ٢٨ .
(٣) آل عمران : ١٣١ .

لـه ، كمـا يستبرىء لدينـه ، ووراء هـذه الإضـافة (لدينه وعرضه) ما يشعر بالتمـلك والحـوزة ، والذى يحـوز شـيئا ويتملكه ، يصونه ويحافظ عليه ، ويدافع عنه ، ويستبرىء له ..

وفى قوله : « **ومن وقـع فى الشبهـات كـراع يرعى حـول الحمى يوشـك أن يواقعـه** » تشـبيه تمثيلى ، الغـرض منـه التحـذير من الوقـوع فى الشبهات ، حيث شـبه - ﷺ - حـال الذى لا يتحـرز عن الشبهات فيقـع فى الحـرام بحـال الراعى الذى يرعى حـول الحـمى المحظـور - حمى المـلوك - ولا يبتعـد عنـه ، فتغلبه غنمـه فتقـع فيمـا حمـاه المـلك فيتعرض للعقـوبة ..

وهـذا من قبيل تشـبيه المعقول بالمحسوس ، حيث مثـل - ﷺ - الأمـر المعنـوى المدرك بالعقـل بالأمـر المشـاهد المحـس ، ووجـه الشـبه هـو عـدم التحـرز من الوقـوع فيمـا يضـر فتحصل العقوبة ..

وكـان ملـوك العـرب يحمـون لمـراعى مواشيهم أماكن مختصة ، ويتوعدون من يرعى فيهـا بغيـر إذنهـم بالعقوبة الشـديدة ، فمثـل لهـم النبى - ﷺ - بمـا هـو مشهور عندهم لتتضح لهـم هـذه الحال المعنوية ، فالذى يخـاف يبعـد عن حـمى المـلك خشية أن تقع مواشيه فيـه ولـو اشـتد حـذره ، فالبعـد أسـلم ، وغيـر الخـائف يقترب ، ويرعى حـوله ، فـلا يأمن أن تقـع مواشيه فى شىء من الحمى بغيـر اختيـاره ، أو يغفـل فيقـع فى شىء منـه ، فالله عـز وجـل هـو المـلك حقـا وحمـاه محـارمه ..

وقـد وضـع الظاهـر موضـع الضمير أيضـا فى قـوله (ومـن وقـع فى الشبهات) إذ الأصـل : ومن وقع فيها ، مبالغـة فى التحذير ، وعبـر عن إتيـان الشبهات بالوقـوع المعـدى بالحـرف (فى) (ومن

وقــع فى) ليــدل على أن إتيــان الشبهات وفعلهــا ، إنمــا هــو هبوط وتــدن وسقوط إلى الهــاوية ..

وحــذف جــواب الشرط وتقــديره : ومن وقــع فى الشبهات وقــع فى الحــرام ، وهــذا الحــذف يشــعر بضرورة أن يظــل المؤمن بمنأى وبمعــزل عن الحــرام وعن الوقــوع فيــه ، وكــان حــذفه من اللفــظ يؤذن بضرورة طيــه من واقــع المسلمين وسقوطه من عالمهــم(٤) ..

والتعبيــر بالفعــل المضارع (يرعى) يــدل على حــدوث الرعى وتجــدده واستمراره ، ومن شــأن من يصــنع هــذا ، أى : يرعى رعيــا مستمرا متجــددا حــول حــمى المــلوك أن يقــع فى المحظــور ، ولــو عبــر بالمــاضى فقيــل : كــراع رعــا حــول الحــمى ، ما أدى هــذا المعــنى ..

وقــد حــذف مفعــول (يرعى) وتقــديره : يرعى إبلــه أو غنمه أو مواشيه ، وهــذا الحــذف يــدل على العمــوم ، وعــدم التقيد بمفعول خــاص أو بجنس خــاص من الدواب التى ترعى ، ويصــح إجــــراء الفعــل المتعــدى هنــا مجــرى الفعــل اللازم فــلا ينــوى لــه مفعول ولا يــراد ، ويكــون المعنى على حــدوث الرعى ووقوعه دون نظــر إلى مفعــول ، أى : كــراع يكــون منــه رعى ..

وفى قــوله - ﷺ - (الا وإن لكل ملك حــمى ، الا إن حــمى الله فى أرضــه محــارمه ، الا وإن فى الجســد مضــغة ..) .

---

(٤) هذا على جعل (من) شرطية وهو الأولى لثبوت المحذوف فى صحيح مسلم وغيره ، ويمكن إعراب (من) موصولة ، وعندئذ فــلا حذف إذ التقدير : والذى وقــع فى الشبهات مثل راع يرعى حول الحمى ..

استخدمت أداة التنبيه (ألا) للدلالة على تحقيق ما بعدها ، فهى لا تستخدم إلا فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تأكيد وتحقيق، كما مر بنا عند الحديث عن قوله تعالى : « **ألا إنهم هم المفسدون** » فى سورة البقرة(٥) ..

ولذا جاءت بعدها (إن) وكررت كل منهما (ألا وإن) وقدم المسند على المسند إليه فى (لكل ملك حمى) و (فى الجسد مضغة) وهذه كلها وسائل توكيد تدل على عظم الأخبار المذكورة وأهميتها ..

فقد بدأت بالتنبيه إلى أن لكل ملك حمى ، وتنكير (حمى) يدل على التعظيم والتفخيم ، ثم جاء الخبر الثانى (ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه) فكررت فيه الأداة (ألا) الدالة على الاهتمام وإثارة الانتباه ، وقد أضيف الحمى إلى لفظ الجلالة، (حمى الله) إشعارا بهيبته وارتفاع شأنه . وفى (حمى الله) استعارة تصريحية أصلية حيث شبهت المحرمات التى حرمها الله بحمى الملوك والعظماء ، يحمى فلا يقربه أحد ، ثم استعير لفظ المشبه به للمشبه ..

ولعل فى ذكر الأرض (فى أرضه) ما يدل على أنها موطن هذه المخالفات فالوقوع فى الشبهات ، وفى المحرمات إنما يكون فى الأرض التى استخلف الله فيها آدم « **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم**

---

(٥) انظر ص ٣٥ .

مالا تعلمون .. »(٦) أمـا السماء فهى موطن الملائكة الذين « **لا يعصون الله ما أمرهـم ويفعلون ما يؤمرون ..** »(٧) .

ثم جـاء الخبـر الثالث : (ألا وإن فى الجسـد مضـغة) فكررت فيـه الأداة (ألا) مـرة أخـرى للتشويق ومضاعفة الانتبـاه ، وقـد دخلت هـذه المـرة على ما يتوقف عليـه صـلاح الجسـد أو فسـاده ، وهى المضـغة التى استعيرت هنـا للقلب بجـامع الصـغر فى كـل ، وقـد نكـرت للدلالة على تقليلها تعجبـا من أمرهـا ..

ولا يخفى علينـا أن الغـاية من إيـراد هـذه الأخبـار بهـذه الصـورة ، وعـلى هـذه الحـال ، من التنبيـه والتـأكيد والتشـويق والتحقيق ، إنمـا هى تنفيـر النفـوس وترهيبهـا لاتقـاء الشبهات ، احترازا من الوقوع فى الحـرام .

وقـد وجـدت واو العطف فى قـوله (ألا وإن لـكل ملك حمى) وقـوله (ألا وإن فى الجسـد مضـغة ... ألا وهى القلب » وتركت فى قـوله (ألا إن حـمى الله فى أرضـه محـارمه) فما سبب ذلك ؟

هـذه الـواو عاطفـة لمـا ذكـر بعدهـا على محـذوف مقـدر قبلهـا ، قـد عـلم من السـياق ، والتقـدير : ألا إن الأمـر كمـا تقدم من تشـبيه الحـرام بالحـمى والشبهات بمـا حـوله وإن لـكل مـلك حـمى ... ألا إن الأمـر كمـا ذكـر من وجـوب اتقـاء الشـبهات استبراء للدين والعـرض وإن فى الجسد مضـغة يصـلح الجسد بصلاحها ويـفسد بفسادها ... ألا إن الجسـد ليصـلح بصـلاح مضـغة ويفسـد بفسـادها وهى القـلب ..

---

(٦) البقـرة : ٣٠ .
(٧) التحـريم : ٦ .

والمناسبة المسوغة للعطف محققة بين المعطوف والمعطوف عليه المقدر ، إذ الحرام مشبه بالحمى ، والشبهات بما حوله ، وبين هذه الجملة وقوله (إن لكل ملك حمى) تناسب ومشاركة ..

وكذا بين (اتقاء الشبهات) وقوله (إن فى الجسد مضغة) مناسبة واضحة ، إذ الأصل فى اتقاء الشبهات والوقوع فيها القلب فهو العماد ، وعليه صلاح الجسد إذا صلح ، وفساده إذا فسد ..

وأما ترك الواو فى الجملة الثانية (ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه) فلكمال الانقطاع ، وعدم وجود التناسب بين حمى الملوك وحمى الله ، فحمى الله هو الحمى الحقيقى وهو الجدير بأن يسمى حمى ، إذ لا ملك حقيقة ولا سلطان إلا لله الواحد القهار .

وقد أوثر التعبير بإذا فى قوله (إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله) للدلالة على أن صلاح الجسد لا يتحقق إلا بتحقق صلاح المضغة ، لأن (إذا) لتحقق وقوع الشرط ، كما أن فساده لا يكون إلا إذا تحقق فساد المضغة ، وذاك هو السر فى إيثار التعبير بإذا فى الموضعين ..

ولا تخفى علينا المقابلة بين الصلاح والفساد فى قوله (إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد) وهذه المقابلة تزيد المعنى جمالا ووضوحا ، لأن الضد يظهر حسنه الضد ، كما أنها تنبه النفوس ، وتحثها على النظر والتأمل للوقوف على حقيقة هذه المضغة والعمل على إصلاحها ليتحقق بصلاحها صلاح الجسد كله ..

وقد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير فى قوله (إن فى

الجسـد مضـغة إذا صلحت صـلح الجسـد كلـه ، وإذا فسـدت فسـد الجسـد كلـه) إذ الأصـل : إن فى الجسـد مضـغة إذا صلحت صـلح كلـه ، وإذا فسـدت فسـد كلـه ، والسـر البلاغى وراء العـدول عن عن الضـمير إلى التعبيـر بالاسـم الظاهـر فى الموضـعين أن يقـع الصـلاح على لفـظ الجسـد ، ويسـند إليـه ، وكـذلك الفسـاد ، فيتـأكد بذلك مضمون الخبـر ، إذ الإسـناد إلى الظاهـر يؤكد المعنى ويحققـه ، فليس الإسـناد إلى الضـمير كالإسناد إلى الظاهـر ..

★ ★ ★

- ٢ -

عن عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – قال : كنت خلف النبى – ﷺ – يوما ، فقال : (يا غلام إنى أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف) .

رواه الترمذى . وفى رواية غير الترمذى :

(احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا) .

كثر فى هذا الحديث الشريف أسلوب الأمر وأسلوب الشرط ، وذلك مما يناسب مقام النصح والتعليم ، وقد حفل الحديث بأسرار بلاغية متنوعة ، تدل على جوامع كلمه – ﷺ – وعلى تمكنه من لغة البيان ، وإن من البيان لسحرا ..

ويفهم من قول ابن عباس – رضى الله عنهما – (كنت خلف النبى – ﷺ – يوما) جواز الإرداف على الدابة إذا أطاقته ، كما يدل ذلك على مدى تواضعه – ﷺ – وتنكير (يوما يدل على التقليل، أى : زمنا قليلا أو ساعة من نهار ..

وإيثار التعبير بالحرف (يا) فى ندائه – ﷺ – عبد الله بن عباس (يا غلام) وهو قريب منه ، مردف خلفه ، و (يا) إنما ينادى بها البعيد ، فهى موضوعة له ، تعظيما لعبد الله بن

عباس - رضى الله عنهما - وإشعارا ببعد منزلته ، وحب النبى - ﷺ - وتقديره له ..

كما يدل على عظم الأمور الآتية بعد النداء ، وأنه ينبغى أن ينتبه لها وأن يهيأ الذهن ، ويوقظ الفكر ، ليصغى بعناية واهتمام إلى ما سيلقى من أخبار وتوجيهات ، فتقع عندئذ فى النفس ألطف موقع ، ويكون لها فيها أعظم الأثر ..

وقد رأينا أن النداء فى القرآن الكريم قد جاء بهذا الحرف (يا) (يا أيها الذين آمنوا ... يا أيها الناس ... يا آدم ... يا أيتها النفس ..) ، والله عز وجل اقرب إلى عباده من حبل الوريد ، وإنما أوثر التعبير بما ينادى به البعيد لتهيئة النفوس لما سيلقى ، لأنها أمور مهمة ، ومعنى بها (٨) ..

(إنى أعلمك كلمات) تأكيد الخبر هنا بعد النداء لمزيد من التنبيه والإيقاظ ، فهو تنبيه آخر بعد التنبيه بالنداء ، لتتهيأ النفس أكمل تهيئة وتستيقظ أتم استيقاظ ، وتصبح مستعدة لتلقى ما يلقى ، ولا يخفى علينا أن تأكيد الخبر واقع من جهتين ، دخول إن على الجملة الاسمية ، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلى (أنا أعلمك) ، وقد مر بنا وجه دلالة هذا التعبير على التوكيد أو القصر حسبما يقتضى السياق (٩) ..

وتنكير (كلمات) للدلالة على التعظيم ، فهى كلمات قليلة فى ألفاظها ، ولذا عبر عنها بجمع المؤنث السالم وهو من جموع القلة، فلم يقل : إنى أعلمك كلاما ، بل كلمات قليلة فى حروفها وألفاظها ، عظيمة فى فوائدها والانتفاع بها ..

---

(٨) ارجع إلى ص ٤٧ .
(٩) ارجع إلى ص ٤٤ .

وفى هــذا القول (إنى أعلمــك كلمــات) إبهام تتطلع النفس إلى بيــانه ، وتترقب إيضــاحه ، وقد جاء الإيضــاح فى قوله : **(احفـظ الله يحفظـك)** ، والإيضــاح بعد الإبهــام يجعل المعنى يتمكن فى النفس فضــل تمكن ، لأن الإبهــام والإجمال أولا ، جعــل النفس تترقب وتتطلع إلى توضيح المبهم وتفصيل المجمــل ، فعندما يأتى الإيضــاح والتفصيل يقــر فى النفس ويثبت ، لأنه جاءها وهى له مترقبة وإليه تتطلع ..

وفى قوله (احفظ الله) حذف المضــاف ، وتقديره : احفظ أحكام الله وشرائعه ودينه ، وفيه استعارة مكنية ، حيث شبهت الشرائع والأحكام بالشىء الذى يصــان ويحفظ من الضــياع والأذى ، ثم حــذف المشبه به ورمــز له بشىء من لوازمه وهو الحفظ (احفظ) ، وفى هــذا حث على الامتثــال وإقــامة شرع الله وتحقيقه ..

وفى قوله (يحفظــك) حذف الجــار والمجرور وهو المتعلق الثانى للفعــل وتقديره : يحفظك فى نفســك وأهلك ودينك ودنيــاك ، وهــذا الحذف يفيد عموم الحفظ ، دون توقف عند محفوظ معين ، فمن حفظ الله ، والتزم أوامــره ، واجتنب نواهيــه ، وأسلم أمــره إليه ، حفظــه الله فى نفســه ودنيــاه وأهــله وفى دينــه ، قال تعــالى : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفــه يحفظــونه من أمــر الله** »(١٠) ، وقــد حفظ الله الكنز تحت الجــدار للغــلامين اليتيمــين ، لمــاذا ؟ لأن أباهما كان صــالحا حافظا لله ، وقد ورد عن أحد الصــالحين مخاطبا ابنه : لأزيدن فى صلاحى من أجلك ، رجاء أن أحفظ فيــك ..

وقد فصــل بين هذه الجمل (يا غــلام ، إنى أعلمــك كلمــات ، احفظ الله يحفظــك) لكمال الانقطاع بلا إيهــام ، لأن الجملة الأولى نداء

---

(١٠) الرعــد : ١١ .

فهى إنشـائية لفظـا ومعنى ، والثانية خبرية لفظـا ومعنى ، والثالثـة أمــر فهى إنشـائية لفظا ومعنى ٠٠

أما الفصـل بين الجملتين (احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجـاهك) ، فلكمال الاتصـال ، لأن الجمـلة الثانية مؤكدة للأولى ، منزلة منهـا منزلة التأكيد المعنوى ، إذ يلزم من ثبوت معنى إحـداهما ثبوت معنى الأخـرى ٠٠

وقوله : (تجده تجـاهك) تمثيل لحفظه تعالى وإحاطته وتأييده للمؤمن وعـونه له ونصـره إياه ، فهو استعـارة تمثيلية ، ويصح جعله مجـازا مرسلا علاقته السببية ، حيث أطلق المعيـة وأراد العون والتأييد ، والحفظ والنصـرة والحراسـة وما إلى ذلك ، والقـرينة استحالة الحقيقة وهى المعية بالذات عليه تعـالى(١١) ٠

---

(١١) مثل هذه الصيغ والتعبيرات الواردة فى الحديث الشريف وآيات الذكر الحكيم والتى يوهم ظاهرها مشابهته تعـالى للحوادث ، كقوله تعـالى : (إن الله مع الصـابرين ٠٠ إن الله معنـا ٠٠ إن معى ربى ٠٠ وهو معكم أينما كنتم ٠٠ يد الله فـوق أيديهم ٠٠) وقوله عليه الصـلاة والسلام : (احفظ الله تجده أمـامك ٠٠ والذى نفسى بيده ٠٠) ونحو ذلك مما يوهم ظاهـره المشـابهة ، أوله المتأخرون ، وحملوه على المجـاز ، وحـددوا معنـاه فقالوا : المـراد باليد : القـدرة أو القـوة ، والمـراد بالمعيـة : النصـر والتأييد ، أو العـلم مجـازا مرسـلا حيث أطلـق السبب وأريد المسبب ، أو هو تمثيـل أى استعـارة تمثيلية لحفظـه تعـالى وتأييده المؤمنين ، وإحاطة علمـه تعـالى بالكفار والمنـافقين ، وتصـوير عدم خروجهم عنـه أينما كانوا ٠٠ أما علمـاء السلف فلم يمنعوا ما أجازه المتأخرون ، بل جعلوه احتمالا يحتمله الكلام، ولم يلتزموه ، لأن القول بالالتزام قول بلا دليـل ، ولذا ينبغى

وإيثـار التعبير بقوله (تجاهك) دون غيره من باقى الجهـات الست ـ فالتجـاه هو الأمام ، وقد صـرح به فى بعض الروايات ـ إشعارا بشـرف المقصد ، وبأن الإنسـان مسـافر إلى الآخـرة ، والمسـافر إنما يطلب أمامه لا غير ، والمـراد تجده حيثما توجهت وتيممت وقصدت من أمـر الدنيـا والآخرة ، ففى (تجـاه) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، حيث أطلق الجـزء تجاه أى : أمام ، وأراد الكل وهو سـائر الجهـات الست ، وإيثـار (تجاه) بالتعبير يشعر بشرف المقصد ، كما أوضحنا ..

ومعيـة الله تعـالى للعباد معية عامة ، وتلك تعنى المراقبة والإحاطة كما فى الآيات : « **يعـلم ما يلج فى الأرض وما يخـرج منهـا وما ينزل من السماء وما يعـرج فيهـا وهو معـكم أينمـا كنتم ... يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ... ما يكون من نجـوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسـة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ..** »(١٢) .

ومعية خاصـة ، وتلك تعنى : حفظه تعـالى للعبد وتاييده ونصره وعـونه وحراسته ، كما فى الآيات : « **لا تحـزن إن الله معنـا .. كلا إن**

= السكوت عن الخوض فى تحديد معانى هذه الظواهر ، ويكتفى بمعناها الإجمـالى ، الصـارف لها عن الظـاهر ، ولعـل الذى ألجأ الخلف ، وهم المتأخرون ، إلى هـذا التحديد ظهـور بدع المشبهة والمجسمة وغيرهم ، فأرادوا سد باب الإيهـام ، ودفـع الوسـواس عن العـوام حتى لا يخـرجوا عن دائرة التنزيه ، ولا يحوموا حول التشبيه .. ارجع إلى روح المعانى ١٦٨/٢٧ ، وانظر المختار من كنوز السنة للشيخ محمد عبد الله دراز ١٨٦ ، ١٨٧ .

(١٢) الآيات بالترتيب : الحديد : ٤ ، النساء : ١٠٨ ، المجادلة : ٧ .

معى ربى سيهـــدين ٠٠ استعينـــوا بالصـــبر والصـــلاة إن الله مـــع الصابرين ٠٠ »(١٣) ٠

والمعنى فى كل على المجـاز ، إما المجاز المرسـل ، أو الاستعارة التمثيلية ، وفى تحديد المعنى المجـازى المـراد خلاف بين علماء السلف وعلمـاء الخلف ـ كما ذكـرنا ـ ، فعلمـاء الخلف قد حـددوا المعنى المجـازى المـراد ، وعلمـاء السلف لم يرتضوا هذا التحديد ، وجعلوه احتمـالا يحتمـله الكلام ، لا التزامـا يلتزم ، لأن القول بالالتزام قـول بلا دليـل ٠٠

وفى قوله ﷺ : (احفظ الله تجـده تجاهك ، إذا سـألت فاسـأل الله) ، فصـل بين الجملتـين لـكمال الاتصـــال ، لأن الثانيـة مؤكدة ومقـررة لمعنى الأولى ، فالأمـر بالتوجه إلى الله بالسؤال يؤكد ويقـرر معنى كونه ـ عز وجل ـ تجاه من يحفظه ، ولا يخفى علينا أن الجملة الثانيـة (إذا سـألت فاسـأل الله) جمـلة إنشـائية ، إذ المعتد به فى الجمـلة الشرطيـة إنما هـو جـواب الشـرط ، وقد وقـع هنـا أمـرا (فاسـأل الله) ٠

وفى قوله (إذا سـألت فاسـأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) مجـاز مرسل علاقته المسببية ، إذ المـراد : إذا أردت أن تسـأل فاسأل

عن الإرادة ، كما فى قوله تعـالى : « **فإذا قـرأت القـرآن فاستعن بالله من الشيطـان الرجيم** »(١٤) ، والمعنى : إذا أردت أن تقـرأ فاستعذ ، فالاستعاذة مسببة عن الإرادة ، وواقعـة بعدها ، لأن المؤمن إذا أراد أن

---

(١٣) الآيات بالترتيب : التوبة : ٤٠ ، الشعراء : ٦٢ ، البقرة : ١٥٣ ٠
(١٤) النحـل : ٩٨ ٠

يقرأ يستعيذ بالله أولا ثم يقرأ ، فالإرادة تسبق الاستعاذة ، والاستعاذة تسبق القراءة ..

وقد عبر بإذا في الموضعين (إذا سألت .. وإذا استعنت) لأن سؤال المؤمن ربه وتوجهه إليه تعالى بالدعاء ينبغي أن يكون محققا وواقعا ، وكذا استعانته به وركونه إليه واعتماده عليه ، ينبغي أن يكون من الأمور المحققة الوقوع ، فالمؤمن يجب عليه أن يتجه إلى ربه بالسؤال ويطلب منه العون فهو وحده الوهاب والمعين ، وهو قريب من عباده ، يجيب دعاءهم إذا سألوه « **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** »(١٥) ، وخزائنه عز وجل لا تنفد « **وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** »(١٦) ... « **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** »(١٧) ، ولا فائدة من سؤال غير الله لأنهم لا يملكون شيئا ، وإذا سأل المؤمن ، أو استعان بغير ربه ، وكله الله تعالى إلى هذا الغير فباء بالخسران المبين .

ولله در القائل :

لا تسألن بنى آدم حاجة

وسل الذى أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله

وبنى آدم حين يسأل يغضب

وقد رأى أحد من السلف الصالح رجلا يشكو إلى آخر فاقته وحاجته ، فقال له : يا هذا ، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك ..

---

(١٥) البقرة : ١٨٦ .
(١٦) الحجر : ٢١ .
(١٧) النحل : ٩٦ .

وحذف متعلق (سـألت ... واستعنت) والتقدير : إذا سـألت أحـدا ... وإذا استعنت بأحد ، وهـذا التقدير - كما يقول عبد القاهر - تأباه النفس وتروم منـك أن تنسـاه وتباعده عن وهمك وتجتهد ألا يدور فى خلدك ، وألا يعـرض لخاطرك ، وتتوقاه توقى الشىء يكره مكانه ، والثقيـل يخشى هجـومه(١٨) .

والسـر البلاغى وراء ذلك أن الحذف قد جعـل الاستعانة والسؤال منصـرفين إلى الله ، متجهين إليـه ، لا يروم العبد ، ولا يتطلع فى سؤاله واستعانته إلا إلى ربه ، ولا يخطر غير الله بخاطره ، وكان الفعلين قـد أجريا مجرى اللازم ، وصـار المعنى : إذا كان منـك سؤال ، وإذا وجدت منك استعانة ، فليكن لله وبالله ، وتقدير المحذوف يضيع هذا المعنى ، إذ يجعل اللفظ فى الشرط منصرفا لغير الله تعـالى ..

وقد وصـل بين هـذه الجمـل : (إذا سـألت فاسـأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمـة ...) للتوسط بين الكمالين مع عدم المـانع من الوصـل ، فهى جمـل إنشـائية ، والمعـول عليـه فى الجمـل الشرطية ، إنما هو جواب الشرط - كما ذكـرنا - وهو هنا فعل أمـر ، فاسـأل ، فاسـتعن ، ولذا تكون الجمـل الثلاث جملا إنشائية ، وقد اتحد فيهـا المسند إليـه ، أو اتحدت هى فى المسند إليـه ، وهـو ضمير المخاطب :اسـأل .. استعن .. اعلم ..

والتعبير بفعـل الأمر (واعلم) لتنبيه المخاطب ، وإيقاظ المشاعر ، وتهيئـة النفوس للتلقى ، والوقوف على ما يرد من أخبار ، فهو يستخدم فى الأمـور المهمة التى تحتـاج إلى تنبيـه وإيقاظ وتهيئة ، قال تعالى : « واعلمـوا أن فيـكم رسـول الله لـو يطيعكم فى كثيـر من الأمـر

---

(١٨) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ١٧٤ .

لعنتم .. »(١٩) ، وقال عز وجـل : « **واعلمـوا انما غنمتم من شىء فـان لله خمسـة وللرسـول ولذى القـربى واليتـامى والمسـاكين وابن السبيل ..** »(٢٠) ، وقال جل وعـلا : « **فإن تولـوا فاعـلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** »(٢١) .

ومثـل الأمـر بالعلم ، الأمـر بالسماع والعقـل والنظـر ، كما فى قول الرسول ـ ﷺ ـ فى خطبـة الوداع : (أيهـا الناس اسمعوا قولى هذا واعقلوه فإنى لا أدرى لعـلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهـذا الموقف أبدا ..) ، وكما فى قوله تبارك وتعـالى : « **قـل انظـروا مـاذا فى السـموات والأرض** »(٢٢) ، فإن المغـزى من الأمـر بهذه الأفعـال، إنما هو إثارة الانتبـاه ، وإيقـاظ الأحاسيس ، وتهيئة النفس للتلقى ..

وفى قـوله : (**لو اجتمعت أمـة على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك إلا بشىء قـد كتبـه الله لك ، وإن اجتمعـوا على أن يضـروك بشىء لن يضـروك إلا بشىء قـد كتبه الله عليك ...**) .

عبر بأداة الشـرط (لو) ـ وهى حـرف امتناع لامتنـاع ـ فى جانب الاجتماع للنفـع ، وعبر بالأداة (إن) ـ وهى لندرة وقوع الشـرط واستبعاده ـ فى الجـانب الآخـر وهو جانب الاجتمـاع للضر ، وذلك للدلالة على أن اجتماع الأمـة للإمداد والنفـع من المستحيلات الممتنعة ، واجتماعهم للأذى والضـر من الأمـور الممكنة الجائزة ، وأقصى ما يمكن أن يقـال عن اجتماعهم للشـر والأذى ، إنه مستبعد نادر ، ولكن ليس محالا ، كالاجتماع للنفـع والإمداد ..

(١٩) الحجـرات : ٧ .
(٢٠) الأنفـال : ٤١ .
(٢١) المـائدة : ٤٩ .
(٢٢) يونس : ١٠١ .

ومما يلاحظ من فروق بين الشرطين : (لو اجتمعت ... وإن اجتمعوا) أن الضمير قد أفرد فى الأول مراعاة للفظ الأمة ، وجمع فى الثانى مراعاة لمعناها ، ووراء ذلك مغزى بلاغى ينبغى التنبيه إليه ، وهو أن المراد بالأمة فى الحديث سائر المخلوقات ، كما صرحت به رواية الإمام أحمد (فلو أن الخلق جميعا أرادوك ..) ، وأما فى اللغة فتطلق الأمة على الجماعة ، وعلى أتباع الأنبياء ، وعلى الرجل الجامع للخير ، المقتدى به ، وعلى غير ذلك(٢٣) ..

فعندما أفرد الضمير وقيل (اجتمعت) دل ذلك على أن الاجتماع لسائر المخلوقات من إنس وجن وطير ودواب وغير ذلك ، فالاجتماع اجتماع نفع ، وغير الناس لهم منه نصيب ، ولكن اجتماع الأمة بهذا المعنى محال ، ولذا عبر بلو التى هى حرف امتناع لامتناع ..

وعندما جمع الضمير وقيل (اجتمعوا) دل ذلك على أن الاجتماع للناس خاصة ، فالاجتماع اجتماع أذى وضر ، وذا خاص بالناس ، وليس لغير الناس منه نصيب ، وصدق الله تعالى : « **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ..** »(٢٤) .

واجتماع الأمة بهذا المعنى قد يكون نادرا ، أو مستبعدا ، ولكنه ممكن وليس محالا ، ولذا عبر فيه بإن التى تفيد أن مدخولها من

---

(٢٣) كالدين والملة (**إنا وجدنا آباءنا على أمة**) ، والزمان (**وادكر بعد أمة**) والرجل المنفرد بدينه (يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده) ، وعلى الأم كهذه أمة زيد أى : أم زيد ، فالأمة من الألفاظ المشتركة التى تدل على معان كثيرة ..

(٢٤) الحج : ١٨ .

الأمـور الممـكنة ، دون (لو) التى تفيـد أن مدخولها من المستحيلات الممتنعـة ٠٠

وقـد عبر بالمـاضى (اجتمعت ٠٠ واجتمعـوا) ، والمعنى على الاستقبال للدلالة على تحقق الوقـوع ، والمعنى : لو كان اجتماع الأمـة محققـا وواقعـا ، واجتمعوا فعـلا ، فلن يكون منهم نفـع ولا ضـر ، ولو عبر بالمضـارع فقيـل : واعلم أن الأمـة لو تجتمع ٠٠ وإن يجتمعوا ، ما كان فى التعبير عندئذ دلالة على تحقق الوقـوع ٠٠

والتعبير بالمصدر المؤول فى الموضعين (أن ينفعوك ٠٠ أن يضروك) دون المصـدر الصـريح : نفعـك وضرك ، ليتأتى التعبير بالمضـارع الذى يفيد الحـدوث والتجـدد والاستمرار ، فهم يجتمعون لا للنفـع والضر فحسب ، بل للتفنن فيهما والتصنع ، يتفننون كيف يحدثون النفع والضر ، وكيف يكون نفعهم متجددا ومستمرا ، وكذلك الضـر ، وبدون المضـارع لن يكون هذا المعنى ، فالمصدر الصـريح لا يؤديه ، ولذا عـدل عنـه إلى المصـدر المؤول ٠٠

وقد استخدم الحـرف (على) فى الموضعين : (على أن ينفعوك ٠٠ على أن يضـــروك) للدلالة على تمكنهم وتحكمهم وسيطرتهم على وسـائل النفـع والضـر ، وفـرق بين : اجتمعـوا لينفعـوا ويضروا ، واجتمعـوا على أن ينفعوا ويضـروا ، إن (على) دلت على قـدرتهم وتمكنهم ، ومع القدرة والتمكن تفنن وتصنع فى كيفية النفـع أو الضر ، ومع هـذا وذاك لا يجدى ما يفعلون ولا يكون نفـع ولا ضـر إلا بما كتبه الله عـز وجـل ٠٠٠

وتنكير (شىء) فى الموضعين : (على أن ينفعوك بشىء ٠٠ على أن يضروك بشىء) يدل على التقليـل والتحقـير ، أى : بشىء قليـــل

حقير ، ومع قلة الشيء وحقارته لا يجدى ما يصنعون ، وأما تنكير (بشيء) الواقع بعد أداة الاستثناء (إلا) فللدلالة على التعظيم ، لأنه شيء قد كتبه الله تعالى ، وما كتبه لك أو عليك لا يكون إلا عظيما جليلا ..

وجاء النفى بلم فى الموضعين : (لم يضروك .. لم ينفعوك) ، للدلالة على أن الضر والنفع مقطوع بنفيهما ، لا توقع لثبوتهما ، فإن منفى (لم) بالنسبة إلى المستقبل ـ كما هنا فى هذا الحديث ـ غير متوقع ثبوته ، وهذا أدل على نفى ضر الخلق ونفعهم ، لأنه باستخدام (لم) صار مقطوعا به ، لا توقع لثبوته (٢٥) .

وفى قوله (**لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك .. لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**) قصر لصفتى النفع والضر على ما أراده الله للعبد وكتبه له وعليه ، وقد جاء القصر بالنفى والاستثناء ، تنزيلا للواضح المعلوم الذى لا يدفعه أحد ، منزلة المجهول الذى ينكره المخاطب، وذلك تنشيطا للهمم وحثا للعقول على الامتثال والإقبال على الله ، فهو وحده النافع الضار ، ومن التمس النفع عند غيره ذل وضل ، واستحق الردع والزجر ، لأنه صار كأنه ينكر ويجحد الأمور الجلية التى لا تجحد ..

وفى (كتبه الله) إيجاز بالحذف ، والتقدير : كتبته ملائكة الله بأمره تعالى وإرادته ، وهذا الحذف ينبىء بعظم المكتوب وشرفه ..

---

(٢٥) وأما المنفى بلم بالنسبة للماضى فثبوته متوقع ، كما فى قولك : ما لى قمت ولم تقم ، فالقيام متوقع ، لأن المنفى ماضيا ، وأما الحديث فالمنفى فيه فى المستقبل ، كما هو واضح . أنظر مغنى اللبيب ١/٢٧٩ ..

ماض

ولا يخفى علينا الطباق فى قوله (أن ينفعوك ، ولم ينفعوك) ، وقوله (أن يضـروك ، ولم يضروك) وهما طباقا سلب ، وكذا الطبـاق بين الضـر والنفـع فى قـوله (أن ينفعوك ٠٠ أن يضـروك) ، وبين لك وعليك فى قوله : (كتبه الله لك ٠٠٠ وكتبـه الله عليـك) ، لأن فى اللام معنى النفـع ، وفى (على) معنى الضر ،قال تعـالى : « **لهـا ما كسبت وعليها ما اكتسبت** »(٢٦) ٠

وعلى الجمـلة ، ففى الحديث مقابلة بين قوله : (لو اجتمعت على أن ينفعـوك بشىء لم ينفعـوك إلا بشىء قد كتبـه الله لك) ، وقـوله : (وإن اجتمعـوا على أن يضـروك بشىء لم يضـروك إلا بشىء قد كتبـه الله عليـك) حيث قوبلت ثلاثة معـان ، وهى النفـع وعدم النفـع ولك بثلاثة معـان أخرى وهى الضر وعدم الضر وعليك ٠٠

ومن شـأن المقـابلة أو الطباق أن يظهر المعنى ، وأن ينبه الأذهان، ويحـرك العقول ، إذ يجمـع بين المعـانى المضـادة ، وبالوقوف عليها يزداد المعنى جمالا ، ورسوخا فى الأذهان ، واستقرارا فى العقول ٠٠

وقد فصـل قـوله - ﷺ - (رفعت الأقـلام وجفت الصحف) ، عما قبـله للاستئناف البيـانى المسمى بشبه كمال الاتصـال ، حيث تضمن الكلام السـابق سؤالا ، وقـع هذا القول جوابا له ، وكأن سـائلا سـأل لم انتفى نفـع الأمـة وضررها ، فلا تنفـع ولا تضـر إلا بشىء قد كتبـه الله عز وجـل ؟ فجاء الجواب : لأنه قد رفعت الأقلام وجفت الصحف ٠

أما الوصـل بين جملتى (رفعت الأقـلام وجفت الصحف) فللتوسط بين الكمالين مع عـدم المـانع من الوصـل ، حيث اتفقتـا فى الخبرية

---

(٢٦) البقـرة : ٢٨٦ ٠

لفظا ومعنى ، ووجدت المناسبة المصححة للعطف ، ومما حسن الوصل مجيء الجملتين على نسق واحد ، فكل منهما فعلية ، والفعل فى كل منهما مبنى للمفعول ، ونائب الفاعل جمع ، وهناك مراعاة نظير بين الأقلام والصحف .

وبناء الفعلين للمفعول (رفعت وجفت) يدل على التعظيم ، تعظيم قدرة الله عز وجل ، الذى يقول للشىء كن فيكون ، فحذف الفاعل للعلم به ، ولبيان كمال قدرة الله تبارك وتعالى ، والمراد بالأقلام : القلم الذى كتب به فى اللوح المحفوظ ، والمراد بالصحف : اللوح المحفوظ ، وقد جمعت هى والأقلام للدلالة على التعظيم ..

والتعبير (رفعت الأقلام ، وجفت الصحف) كناية عن القضاء الأزلى وفق العلم ، وتقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها ، وفيه حث للتوكل على الله عز وجل ، والإعراض عما سواه ، لأن من علم ذلك وشهد به وأيقن ، أقبل على خالقه ، وأعرض عن كل ما سواه .

وفى قوله : **(تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة)** طباق بين الرخاء والشدة قد جمل المعنى وقرره - كما ذكرنا - ومن دقائق التعبير فى هذا القول المخالفة بين الأمر وجوابه : تعرف إلى الله .. يعرفك ،، فلم يقل : تعرف إلى الله يتعرف إليك مثلا ، وإنما جاء فعل الأمر مشددا ومعدى بإلى ، وجاء جواب الأمر ثلاثيا ومعدى بنفسه ، وذلك لأن العبد هو الذى يحتاج فى تعرفه إلى الله - تعالى - إلى مشقة وجهد ، وبذل وتعمل ، وتفان فى التقرب إليه ، أما المولى جل وعلا ، فحاشا له أن يحتاج إلى ذلك ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية ، ولذا فهو يعرف عباده ، وعباده هم المحتاجون للتعرف إليه ، وهذا من دقائق التعبير فى الحديث النبوى الشريف ..

والتعـرف إلى الله فى الرخاء ، كناية عن الإخـلاص والتفـانى فى العمـل ، والإنفـاق فى طرق الخير ، والمبالغـة فى التقـرب إلى الله بشتى أنواع القـربات ، فإن التعـرف إلى الله يستلزم ذلك ..

ومعرفة الله العبد ، كناية عن تفضله تعالى عليه بإجابة الدعاء وحسن الثواب فى الدنيـا بتفـريج الكربات وتخليص الشدائد ، وفى الآخـرة بالفـوز بالجنـة والنعيم المقيم ..

وقد فصـل بين جملتى : (احفظ الله تجده أمامك ، تعـرف إلى الله فى الرخـاء يعـرفك فى الشـدة) لكمال الاتصـال ، لأن الجمـلة الثانية مقـررة ومؤكدة لمعنى الأولى ، فهى منزلة منهـا منزلة التوكيد المعنوى ، إذ يلزم من ثبوت معنى إحداهما ثبوت معنى الأخرى ..

وأما وصـل الجمـلة الثانية بما بعـدها : (تعـرف إلى الله ... واعلم أن ما أخطـأك لم يكن ليصيبك .. واعلم أن النصر مع الصبر ..) فللتوسط بين الكمالين مع عدم المـانع ، إذ اتفقت هذه الجمل فى الإنشائية لفظـا ومعنى ، ووجد بينهـا التناسب المصحح للوصـل ..

والأمـر بالعـلم وتكراره فى قوله : (واعلم أن ما أخطـأك ... واعلم أن النصـر ...) للتنبيـه والإيقـاظ ، وتهيئـة النفوس لتلقى ما يتـلوه من أخبـار ، إشعارا بعظمها وأهميتها ، على نحو ما بينا فى قوله : (واعلم أن الأمـة ...) .

واستخـدام (ما) الموصـولة فى الموضعـين (ما أخطـأك ... ما أصـابك) للدلالة على التفخـيم والتعظيم ، وقد بولغ فى النفى فى قوله (لم يكن ليصيبـك ... لم يكن ليخطئـك) من جهـات ، وهى تسليط النفى على فعل الكينونة ، ودخول اللام المؤكدة للنفى على الخبر ، وسـريان النفى فى الخبر ..

فما أخطأ الإنسان مهما كان عظيما ينبغى ألا يشغل به ، لأنه لم يقدر له وإنما قدر لغيره ، وما أصابه مهما بلغ عظمه ، فهو له ، ولن يتخطاه إلى غيره ، فعلى الإنسان ألا يفرح بما أوتى ، ولا يحزن على ما فاته « **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير • لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** •• »(٢٧) ، تلك هى الغاية من الدلالة على التهويل والتعظيم ، والمبالغة فى النفى فى قوله: **(ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك)** •

ووجود كلمة (مع) فى قوله : **(واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا)** ، يشعر برجاء النصر والفرج واليسر ، ويؤذن بسرعة حصول كل منها عند حصول مقابله ، وقد توالت هذه الجمل (الصبر مع الصبر •• الفرج مع الكرب •• مع العسر يسرا) بهذا الإيقاع السريع ، مما يشعر بالأمل ، ويفتح باب الرجاء ، ويحث المؤمن على الإقبال على ربه ، وحسن التوكل عليه ••

ولا يخفى علينا مزية الطباق بين : أخطأ وأصاب ، ويخطىء ويصيب ، والفرج والكرب ، والعسر واليسر ، وما أحدثه هذا الطباق من إيضاح للمعنى وتقريره وترسيخه فى الأذهان ، وبعث للنفوس على النظر والتأمل لاختيار ما هو خير لها ، والإسراع إلى قبوله وإلى امتثاله ، والابتعاد عما هو شر وهلاك ••

وتنكير (يسرا) للدلالة على التعظيم ، كما جاء فى قوله تعالى : « **فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا** »(٢٨) ، أى : يسرا

---

(٢٧) الحديد : ٢٢، ٢٣ •
(٢٨) الشرح : ٥، ٦ •

عظيما ، ومن ثم ورد عنـه ـ ﷺ ـ : (لن يغلب عسـر يسـرين) فإن النكرة إذا كررت كانت الثانية غير الأولى ، والمعـرفة إذا أعيدت كانت الثانية عين الأولى غالبا فيهما ، وذلك هو المـراد فى الآية الكريمة ..

ومما يلاحظ فى الحديث الشريف أن لفظ الجلالة (الله) قد تكرر ثمانى مـرات فى ثمانية مواضـع ، ست مـرات فى رواية الترمذى ، ومرتين فى رواية غيره ، والغـرض من هـذا التكرار ، تربية المهابة ، وزيادة التمكين فى النفوس ، والتبرك والتمتع بالنطق بالاسم الجليل ..

كما يلاحظ أنه قد كثر أسـلوب الأمـر الذى يعقبه جواب (احفظ الله يحفظـك احفظ الله تجده .. تعـرف إلى الله .. يعـرفك ..) كما كثر أيضـا أسلوب الشـرط (إذا سـألت .. وإذا استعنت .. لو اجتمعت ... إن اجتمعوا) وهـذا مما يناسب مقام التعليم والإرشاد ..

ويعـد هـذا الحديث الشريف ، وما ورد به من تعبيرات ، أمثـلة واضحة ونماذج جليـة ، لجوامع كلمـه ﷺ (احفظ الله يحفظـك ... ما أخطـأك لم يكن ليصيبك .. تعـرف إلى الله فى الرخـاء يعرفك فى الشدة ... النصـر مع الصـبر ..) إلى آخـر ما قال ـ ﷺ ـ وما عليك إلا أن تعـود إلى الحـديث الشريف ، وتتذوق ، وتتأمل كل جمـلة من جمـله ليتضح لك ما وراءها من مقاصد جليـلة ومعـان غزيرة ، وتلك هى جوامع كلمـه ـ ﷺ ـ التى أتاه الله إياها .



(٣)

عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة - رضى الله عنه قال : « دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله تعالى عنهما - جالس فى ظل الكعبة ، والناس مجتمعون عليه ، فأتيتهم فجلست إليه ، فقال : كنا مع رسول الله - ﷺ - فى سفر ، فنزلنا منزلا ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو فى جشره ، إذ نادى منادى رسول الله - ﷺ : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله - ﷺ - فقال : (إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها فى أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجىء فتن يرقق بعضها بعضا ، وتجىء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتى ، ثم تنكشف ، وتجىء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذى يجب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه ، فاضربوا عنق الآخر » ، فدنوت منه فقلت له : أنشدك الله أنت سمعت هذا من رسول الله - ﷺ - فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه ، وقال : سمعته أذناى ووعاه قلبى .. » رواه مسلم .

يتجلى لنا فى هذا الحديث الشريف ما كان عليه الصحابة - رضوان الله عليهم - من رغبة فى العلم ، وحرص على تلقيه ، ووعى وإدراك لما سمعوه من رسول الله - ﷺ - يظهر لنا ذلك جليا فى عبارات الحديث ، ولنتأمل : (جالس فى ظل الكعبة .. الناس مجتمعون عليه .. أتيتهم فجلست إليه .. سمعته أذناى ووعاه

قلبى ٠٠) ، فتلك الجمـل تنبىء بما كانوا عليـه من حـرص ورغبـة فى العلم ، ووعى وإدراك لمـا سمعـوه من النبى - ﷺ - وانظـر إلى التعبير باسمى الفاعل (جالس) ، (مجتمعـون) ، ثم تأمل هذا القيد (عليـه) والقيد الآخـر (إليـه) فاجتماعهم عليـه لا حوله ، وجلوسه إليـه لا عنده ، وعبد الله بن عمـرو جالس فى ظـل الكعبة، مواصـل لجلوسه ، مستمر فيـه ، والناس عليه مجتمعون ، مواصلون لاجتماعهم، ثابتون فيـه ، هـذا ما يفيده التعبير باسمى الفاعل (جالس ومجتمعون) وما يمكن إدراكه من دلالتهما ، ولمـا أتاهم عبد الرحمن ، جلس إليـه ، ٠٠ رغبة قوية ، وحـرص شديد على مدارسة العلم ، ومواصلة الدراسة ، واستمـرار التلقى ٠٠

وما يحدث به عبد الله بن عمـرو عن رسول الله - ﷺ - دق أدركه إدراكا تاما ، ووعـاه وعيا كاملا ، ولذا لمـا سـأله عبد الرحمن : أسمعت هـذا من رسول الله - ﷺ - ؟ أجابه مؤكدا : سمعته أذناى ووعاه قلبى ، وأشـار بإحدى يديه إلى أذنيه ، وبالأخـرى إلى قلبـه ، فإسناد السمـع إلى الأذن ، والوعى إلى القلب مجـاز عقـلى ، حيث أسند الفعـل إلى آلته ، مبالغة فى توكيد الخبر ٠

وقد تناول النبى - ﷺ - فى الحديث عـدة أمـور ، إذ تحـدث عن مهمـة الأنبيـاء والرسـل ، وأشـار إلى ما سيحدث من فتن ، وأنه لا يأتى زمانا إلا الذى بعده شـر منـه ، وأشـار إلى النجـاة من هـذه الفتن ، وذكـر وجوب السمع والطـاعة للإمام ، والوفاء ببيعته ، فتعالوا ننظـر ونتأمل ما ذكـره المصطفى - ﷺ - ونتعـرف على ما به من أسرار ومـزايا بلاغيـــة ٠٠

استطاع عبد الله بن عمـرو - رضى الله عنهما - بتصـوير دقيق ، أن يقفنا على حال الصحابة - رضوان الله عليهم - عنـدما نزلوا ذلك

المنزل « فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ومنا من هو فى جشره »(١) ، وكأننا نشاهدهم - رضى الله عنهم - وقد شغل كل منهم بأمره ، هذا يصلح خباءه ، وذا ينتضل بالسهام تدربا ، وذاك فى جشره يرعى شئونه ، وينظر فيه ، فالتعبير بالمضارع (يصلح .. وينتضل) يصور لنا الحدث واقعا مشاهدا ، والتعبير بالحرف (فى) يشعر بمدى انشغال أولئك الذى انصرفوا إلى جشرهم ، **فقد تمكن** الجشر منهم تمكن الظرف من المظروف ..

وهذا التقسيم الذى قسمه عبد الله : (فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو فى جشره) يبرز لنا ما كان عليه الصحابة - رضوان الله عليهم - فها هم أولاء مع رسول الله - ﷺ - فى سفر وقد نزلوا منزلا للراحة ، فشغلوا بشئونهم ، وما هى تلك الشئون التى شغلوا بها : إصلاح الأخبية ، والانتضال تدربا ، والنظر فى شئون دوابهم ، تلك حالهم فى وقت راحتهم ، لم يشغلوا بلهو أو عبث ، وإنما انشغلوا بالخير والعمل الصالح ، رضوان الله عليهم أجمعين ..

وبينما هم كذلك منشغلون بأمورهم فى ذلك المنزل الذى نزلوه ..

---

(١) الخباء بكسر الخاء : ما يعمل من وبر أو صوف ، وقد يكون من شعر ، قال تعالى : **(ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين)** النحل : ٨٠ ، وجمع الخباء : أخبية ككساء وأكسية ، ويكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت، .. ومعنى (ينتضل) : يرمى بالسهام تدربا ... والجشر ، بفتح الجيم والشين : الدواب التى ترعى وتبيت فى مكانها ، ويطلق لفظ (جشر) على الذى يظل بمرعاه ولا يأوى إلى أهله ، فالجشر : قوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ، ويبيتون مكانهم لا يأوون إلى البيوت ، والمراد فى الحديث : ومنا من شغل بدوابه تلك ، يرعاها وينظر في شئونها ..

(إذ نادى منادى رسول الله - ﷺ - الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله - ﷺ -) .

إضافة المنادى إلى رسول الله - ﷺ - فى قوله : (نادى منادى رسول الله) تدل على تعظيم المضاف ورفعة شأنه ، والتعبير بالفاء فى قوله : (فاجتمعنا) تشعر بسرعة الإجابة وتلبية النداء ، فما أن سمعوا النداء حتى اجتمعوا إلى الرسول - ﷺ - كما يشعر التعبير بحرف الجر (إلى) بمدى حرصهم وترقبهم وتطلعهم إلى ما يريده - ﷺ - ولذا لم يقل : فاجتمعنا عنده مثلا ، وإنما قال : فاجتمعنا إليه ..

وقول المنادى : (الصلاة جامعة) خبر أريد به الإنشاء ، إذ المعنى : اجتمعوا للصلاة ، والغرض من وضع الخبر موضع الإنشاء حمل المخاطب على تحقيقه وتحصيله ، حيث أبرزه المتكلم فى معرض الواقع المحقق رغبة فى وقوعه ، وحرصا على تحصيله ..

ومن ذلك قوله - ﷺ - (لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب) فالمراد : لا تجمعوا فى جزيرة العرب بالنهى ، وقد جاء بصيغة الخبر حملا للمسلمين على تحقيق ذلك وتحصيله ، والجهاد فى سبيل رفع راية الإسلام حتى لا تعلوها راية ..

ومنه قوله تعالى : « **الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين** »(٢) ، فقوله (لا ينكح .. لا ينكحها) خبر أريد به النهى ، وفى بعض القراءات بالجزم على النهى ، وعلى قراءة الرفع يكون قد وضع الخبر موضع الإنشاء مبالغة فى الزجر والردع ، حيث أبرز المنهى عنه فى معرض الواقع المحقق رغبة فى تحقيقه وحرصا على تحصيله ..

(٢) سورة النور : ٣ .

ومن ذلك أيضا صيغ الدعاء كقولنا : رضى الله عنه ٠٠ رحمه الله ٠٠ لا سمعت مكروها ٠٠ فإن المراد : اللهم ارض عنه وارحمه ولا تسمعه مكروها ، والتعبير بالخبر فيه إشعار بأن الدعاء قد حصل وتحقق ، وفي ذلك من التفاؤل ما لا يخفى ٠٠

وبعد نداء المنادى : (الصلاة جامعة) من الطبيعي أن تؤدى الصلاة ، التى نودى لها ، مع النبى - ﷺ - وبعد أدائها يكون حديثه إليهم ، وكان المعنى : فاجتمعنا إلى رسول الله - ﷺ - فصلينا معه ، وبعد الصلاة حدثنا - ﷺ - فقال ٠٠٠

وقد سكت الراوى عن ذلك المحذوف ، وطواه لظهوره وجلائه ، ومثل هذا الحذف يحسن فى الكلام ويلطف ، لأن الجمل التى لا يحتاج إليها الكلام لظهورها ظهورا بينا ، وسهولة إدراكها منه ، يحسن طيها حتى لا يترهل بها الكلام ، وهم يذكرون من أغراض الحذف : الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ٠٠

فقال : (**إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ٠٠**) ٠

بدأ - ﷺ - حديثه بتنبيه الصحابة ، وإيقاظ مشاعرهم ، حيث ذكر مهمة الأنبياء ، والغرض الذى أرسلوا من أجله ، فإنهم لم يرسلوا إلا للتبليغ ودلالة أمتهم على خير ما يعلمون لهم وإنذارهم شر ما يعلمونه لهم ، ومراده - ﷺ - أن ينتبه الصحابة لكى يدركوا حقيقة ما سيخبرهم به ، فعندما يتذكرون أن الرسول لم يرسل إلا لدلالتهم على الخير ، وإنذارهم الشر ، ينتبهون لما يقوله ، ويصغون إليه ، لكى يقفوا على حقيقته ويدركوه ٠٠

وقد قصر - ﷺ - مهمة الرسل والغرض الذى أرسلوا من أجله

على وجـوب التبليـغ والتعليم والإنذار ، قصـر موصوف على صـفة ، قصـرا حقيقيا ، فإرسـال الرسل مقصور على التبليغ منفى عما عـداه مما يتنافى مع التبليغ ..

وفى إيثار التعبير بالنفى والاستثناء للدلالة على القصر دون (إنما) تنزيـل للأمـر المعـلوم الواضـح الذى لا ينكـره الصحـابة ، منـزلة المجهول الذى يدفـع وينكر ، وذلك تنشيطا للهمم ، وحثـا للعقول على الإقبـال والامتثال ، والإصغاء لمـا يلقيـه - ﷺ - إليهم ..

وبتأمل أسـلوب القصـر وبناء جملته فى الحديث الشـريف ، نجده قد بنى بناء يجلى مهمـة الرسل - عليهم السـلام - ويؤكد هـذه المهمـة التى وجب عليهم القيـام بهـا ، فقد عبر بإن لتوكيد الخبر ، وقـال : (لم يكن نبى) ، فعبـر مضارع (كان) المنفى بلم ، وهو إما تام ، والمعنى : لم يوجـد نبى قبلى إلا لهـذه المهمـة ، وفـرق بين قولنـا : لم يرسـل نبى إلا للتبليغ والإنذار ، وما عليـه نظم الحديث (لم يكن نبى قبـلى) ، فنظـم الحـديث أفـاد أن الرسـل لم يوجـدوا أصـلا إلا لتلك المهمـة ..

وإما ناقصـا قد حذف خبره ، والمعنى : لم يكن نبى قبلى متصفا بصفة من الصفات إلا بصفة التبليـغ والإنذار ، فقد نفى عنهم كل وصـف ما عدا البلاغ الذى وجدوا من أجلـه ، وخلقوا له ..

هـذا فى جانب المقصـور ، فإذا انتقلنـا إلى بنـاء المقصور عليـه وجدنا قوله : (حقـا) مصدرا مؤكدا لنفسـه ، والمعنى : إلا حق عليـه حقـا أن يدل أمتـه ، (فحقـا) مصدر مؤكد لفعـل محذوف من لفظه ، ووجدنا أيضـا : التعبير بالمصـدر المـؤول (أن يدل) وعطف قـوله : (وينذرهم) عليـه ، وذلك ليتأتى التعبير بالفعـل المضـارع الذى يدل

على التجـدد والاستمرار ، ولو عبر بالمصـدر الصريح ، فقيل : إلا كان حقا عليـه دلالة أمتـه على الخير وإنذارهم الشـر ، لضـاع هذا المعنى الذى يؤديه المضـارع ..

ونجد كذلك التعبير بالاسم الموصول (ما) فى موضعيه : (خيـر ما يعلمـه لهم ... شـر ما يعلمـه ..) يدل على التعظيم والتهـويل والإبهـام ، فالذى يعلمـه الأنبيـاء مما علمهـم الله إياه ، وأمـرهم أن يدلوا أممهم عليـه ، خير عظيم هـائل ، لا يدرك كنهـه ، ولا يحيط به إلا من انتبـه وامعـن النظـر والقى السـمع وهو شهيد ، وكذلك الشـر الذى أمـروا أن ينذروهم إياه ..

وبهـذا يتضح لنـا كيف بولغ فى تجليـة مهمـة الأنبيـاء وإبرازها والكشف عنهـا ، وقد بدأ المصطفى - ﷺ - حـديثه ببيـان ذلك ليوقظ الصحابة ، ويثـير انتبـاههم ، فيصغوا إلى ما سيلقيه إليهم من أخبـار - كما ذكـرنا - ويعـوه وعيـا تاما ..

(وإن امتكم هـذه جعـل عافيتهـا فى أولهـا ، وسيصيب آخرها بلاء وامـور تنكرونها ، وتجىء فتن يرقق بعضها بعضـا ، وتجىء الفتنة فيقـول المؤمن : هـذه مهلكتى ، ثم تنكشف ، وتجىء الفتنـة فيقـول المؤمن : هـذه هـذه) .

يخبرنا - ﷺ - بما سيصيب آخـر هذه الأمـة من بلاء وفتن وأمور منـكرة ، وأن أولهـا قد عافاه الله من تلك الفتن ، وسلمـه من البـلاء والأمـور المنكرة ..

واختلف العلمـاء فى تحديد أول الآخـر لهذه الأمـة فقال بعضهم : المـراد بأول الأمـة : زمان النبى - ﷺ - والخلفـاء الثلاثة إلى مقتـل عثمان - رضي الله عنـه - فهذه كانت أزمنة اتفـاق هذه الأمة ، واستقامة

أمـرها ، وعافية دينها ، فلمـا قتـل عثمان - رضى الله عنـه - هاجت الفتن ، ولم تزل ولا تزال إلى يوم القيـامة ، وعلى هـذا فأول الآخـر ما بعد مقتـل عثمان ، وهو آخـر بالنسبة لمـا قبله من زمن العـافية ، واستدلوا على ذلك بقوله - ﷺ - (وأمـور تنكرونها) ، فإن الخطاب فيـه للصحابة ، وهذا يدل على أن منهم من يدرك أول ما جعله - ﷺ - آخـرا ، وقد كان ذلك ، حيث شهـد كثير منهم تلك الفتن التى هاجت بعد مقتـل عثمان رضى الله عنـه ..

وقيـل : المـراد بالأول : زمان الصحـابة والتابعـين ، وبالآخـر ما بعدهما ، ودليـل ذلك قوله - ﷺ - « خير القـرون قـرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. »(٣) ..

ويمكن رد ما استدل به أصحاب الرأى الأول بأن الخطاب فى قوله - ﷺ - (وأمـور تنكرونها) عـام لجميـع المسلمـين ، وليس خاصـا بالصحابة رضوان الله عليهم .

ولغـرابة الخبـر الذى يخبر به - ﷺ - جـاء تأكيده بإن واسـم الإشـارة فى قوله : (إن أمتكم هـذه) ، وبالسين فى قوله : (وسيصيب آخـرها بلاء) ، وذلك لأن الخبر عندما يكون غريبا تقتضى غرابته أن أن يؤكد ليهيىء التوكيد النفس لقبوله ، ويبدد ما به من غرابة ..

وقد حذف الفاعل وبنى الفعـل للمفعول فى قوله - ﷺ - : (جعل عافيتها فى أولهـا) ، وذلك للعـلم بالفاعل ووضوحه ، والمعنى : جعـل الله عافيتها فى أولهـا ، والعافية : السـلامة من فتن الدين ، ففى حديث أبى بكر - رضى الله عنـه - (سـلوا الله العفو والعـافية) أما العفو فهو

---

(٣) انظر شرح ابن علان : ٣/١٣٢ .

محـو الذنوب والسيئات ، وأما العافيـة فهى أن يعـافى الله من السقم والبـلايا والعلل(٤) ..

وتنكيـر البـلاء والأمـور والفتن فى قـوله - ﷺ - (وسيصيب آخـرها بـلاء وأمـور تنكرونهـا ، وتجىء فتن) للدلالة على التعظيم والتهويل ، ولذا وصفت الأمـور بقوله : (تنكرونها) ، ووصفت الفتن بقوله : (يرقق بعضها بعضـا) ، وجاء وصفها فى حديث آخـر بأنهـا كقطـع الليـل المظلم ، وذلك فى قـوله - ﷺ - : « بادروا بالأعمـال الصـالحة فستكون فتن كقطـع الليـل المظلم يصبح الرجل مؤمنـا ويمسى كافـرا ، ويمسى مؤمنـا ويصـبح كافـرا يبيـع دينـه بعـرض من الدنيـا »(٥) .

ومعنى : (يرقق بعضها بعضـا) : يصـير بعضها بعضـا رقيقـا خفيفا لعظم ما بعده ، فالثـانى يرقق الأول ، أى : أن الفتن تبدأ خفيفة ضئيلة ثم تعظم ، وكلما جاءت فتنـة ضـلت أمامهـا ما قبلهـا لعظم الثانيـة ، ويؤيد ذلك ما رواه البخـارى أن النـاس أتوا أنس بن مالك - رضى الله عنـه - فشكوا إليـه ما يلقـونه من الحجـاج ، فقـال لهم : (اصـبروا فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شـر منـه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيـكم - ﷺ -) .

وقيـل معناه : يشبه بعضها بعضـا ، وقيـل : يسوق بعضها بعضـا بتحسينهـا وتسويلهـا ، وقيـل : يـدور بعضهـا فى بعض ويذهب ويجىء به(٦) .

وروى (يدفق بعضها بعضـا) بفتح اليـاء وكسر الفـاء أى : يدفع ويصب ، والمعنى على تشبيه الفتن ، بموج البحـر يدفع بعضه بعضـا ،

---

(٤) انظر لسان العرب مادة : عفـا .
(٥) رواه مسـلم .
(٦) انظر دليل الفالحين ١٣٥/٣ .

وتشبيه المؤمن وسط هـذه الفتن بالعـائم الذى تتقاذفه الأمـواج ، فإذا أقبلت عليـه موجـة قال : هـذه مهلكتى ، ثم تروح عنـه تلك الموجـة فتاتيه أخـرى فيقول : هـذه هـذه ، أى : هذه التى ستغـرق لا محالة ، فضعيف الإيمـان تأخذه هـذه الأمواج فيهلك ، وقوى الإيمان يعض على سنة رسول الله - ﷺ - بالنواجذ حتى ينجو من الغـرق ، هذا ما أمرنا - ﷺ - أن نواجـه به الفتن حين قال : « أوصيكم بتقـوى الله والسـمع والطـاعة وإن تأمـر عليـكم عبد حبشى ، وإنه من يعش منكم فسـيرى اختـلافا كثيرا ، فعليـكم بسنتى وسنة الخلفـاء الراشدين المهـديين ، عضوا عليهـا بالنواجـذ ، وإياكم ومحـدثات الأمـور ، فإن كل بدعـة ضـلالة »(٧) .

وجمـلة (يرقق بعضها بعضـا) إما صفة للنكرة قبلهـا (فتن) - كما ذكـرنا - وإما مستأنفـة استئنافا بيـانيا ، وكأن سـائلا سـأل : ما صفة هذه الفتن العظيمة المهلكة ؟ فأجب : يرقق بعضها بعضـا . .

وإسناد الإهـلاك إلى الفتنـة فى قوله - ﷺ - : (هذه مهلكتى) إسناد مجـازى ، حيث أسند اسم الفاعل إلى سببه ، وذلك لتصـوير شدة الفتنـة ، والمبالغة فى أثرها على المؤمن .

وإنما خص النبى - ﷺ - المؤمن بالذكـر ، وأسند إليـه القـول فى قـوله : (فيقولَ المؤمن هـذه مهلكتى) لأن المؤمن هو الذى يشعـر بعظم هـذه الفتن ،ويدرك خطورتها ، وأما غير المؤمن فينغمس فى هذه الفتن والأمـور المنكرة ، ويعـلوه موجها ، فيأخذه إلى قـاع الهـلاك والعـــذاب .

وأل فى قوله : (وتجىء الفتنـة) للجنس ، فالمحـلى بهـا نكرة

---

(٧) رواه أبو داود والترمذى .

من حيث المعنى ، ولذا فإن الفتنـة الثانيـة غير الأولى ، لأن النكرة إذا كررت كان الثـانى غير الأول ، والمـراد : وتجىء الفتنة العظيمة فيفزع المؤمن ، ويقـول هـذه هى الفتنـة المهلـكة التى ستهلكنى ، ثم تنكشف بامـر الله عن المؤمنين ، وتجىء فتنـة أخـرى أعظم وأفظع من الأولى ، فيفـزع المؤمن ويقول : هذه هذه ، وتتوالى الفتن ويكثر البلاء ..

فقوله : (هـذه هـذه) مسند ومسند إليـه ، فهما وإن اتحدا لفظا إلا أنهما تغايرا معنى ، والمراد : هذه الفتنة هى الفتنة العظمى التى فيها الهلاك ، والتعبير باسم الإشـارة وتكراره لفظا لتعظيم الأمـر وتفخيمه ، ومثـله فى غير اسم الإشـارة أن يقـال فى مقـام المدح والثنـاء : ذاك هو البطل وبطشـه بطشـه ، وهذا هو المحدث وعلمـه علمـه ، وذلك هو الناصح ورأيه رأيه ..

(فمن احب أن يُزَحـزح عن النـار ، ويُدْخَـل الجنـة ، فلتـأته منيتـه وهو يؤمن بالله واليوم الآخـر ، وليأت إلى النـاس الذى يحب أن يؤتى إليـه ..) .

ثم بين - ﷺ - طـرق النجـاة من هذه الفتن التى ستصيب آخـر هـذه الأمـة ، وهو أن يقبض المؤمن على دينـه ، ويتمسـك بالكتاب والسنة ويعض عليهما بالنواجذ ، ولا يظـلم أحدا كما يحب ألا يظلمـه أحـد ، فليـأت إلى النـاس ما يحب أن يؤتى إليـه ، وليمنـــع عنهم ما يحب أن يمنـع عنـه ..

وقد حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فى قوله : **(يزحزح عن النار، ويدخل الجنة)** ، وذلك للعلم بالفاعل وهو المولى عز وجل ، والمعنى : فمن أحـب أن يزحزحه الله عن النـار ويدخله الجنـة .

والتعبير بالزحزحة يشعر بالاقتراب من النـار ، وصيرورته على شفا حفـرة منها ، ولم يعـد أمـامه سوى أن يزحزح عنها فينحى ويبعد ،

ويوجه إلى طريق الجنة ، أو يترك فيسقط فى النار ، وفى بعض الروايات : (فمن أحب أن يخرج نفسه من النار ويدخل الجنة) فأطلق الإخراج وأراد المباعدة على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته التلازم ، لأن الخروج يستلزم المباعدة ، والتعبير بالإخراج عن المباعدة يشعر بشدة الاقتراب من النار ، حتى كأنه قد دخلها بالفعل ...

والمراد بالأمر فى قوله : (**فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر**) الدوام على الإيمان والحث على الاتصاف به والاستمرار عليه طوال الحياة ، كما يقال : مت وأنت كريم ، ولا يراد بذلك حقيقة الأمر ، وإنما المراد الحث على الاتصاف بتلك الصفة والدوام عليها طوال حياته ، ومن ذلك قوله تعالى : « **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** »(٨) ، فليس المراد حقيقة النهى ، وإنما أريد البحث على التمسك بالإسلام والاستمرار عليه طوال حياتهم ، فإذا جاءهم الموت ، وهو لا يأتى إلا بغتة ، ماتوا وهم مسلمون ..

وقيد الإيمان (بالله واليوم الآخر) لمزيد الاهتمام والعناية ، ولأن الإيمان بهما يستلزم الإيمان بغيرهما ، فهما الأصل والأساس ، ومن أتى بهما كان آتيا بغيرهما من نحو الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر ..

وقوله - ﷺ - : (وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه) ذكر للخاص بعد العام ، اعتناء بشأن الخاص ، لأن التمسك بالإيمان طوال الحياة يندرج تحته إتيان الناس ما يحب أن يؤتى إليه ، وهذا من جوامع كلمه - ﷺ - وبدائع حكمه ، ومثله قوله - ﷺ - : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٩) .

الحث

---

(٨) البقرة : ١٣٢ .
(٩) رواه البخارى ومسلم .

ووراء حذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول فى قوله - ﷺ - : (الذى يحب أن يؤتى إليه) معنى دقيق يحتاج إلى وعى لإدراكه وهو الدلالة على أن المؤمن يجب عليه أن يحب للناس أن يأتى إليهم كل ما يحب أن يأتى إليه من خير ، سواء أكان الخير آتيا لهم منه أم من غيره ، وأن يكره أن يأتى إليهم الشر الذى يكرهه لنفسه ، سواء أكان الشر منه أم من غيره ، فليس المراد أن يقف حبه أو كرهه للذى يأتى الناس عند حد المماثلة لما يأتيه منهم ، بل المراد أن يتجاوز تلك المماثلة فيشمل كل خير يحب أن يأتى له من أى جهة كانت ، وكل شر يحب أن يمنع عنه من أى جهة كانت ، وهذا المعنى يجليه الحديث الآخر الذى ذكرناه : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ، ولو ذكر الفاعل فقيل : وليأت إلى الناس الذى يحب أن يأتوا إليه ، لضاع هذا المعنى ، إذ يقف عندئذ حبه وكرهه لهم عند حد المماثلة ، لا يتجاوزها إلى ما ذكرناه ٠

(ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر) ٠

يتناول هذا الجزء من الحديث الشريف بيان ما يجب على المسلمين تجاه بيعة الإمام ، من وفاء بها ، وطاعة للإمام فى غير معصية الله تعالى ، والدفاع عنه والقتال دونه إن جاء آخر ينازعه الإمامة ٠٠

وتنكير الإمام فى قوله - ﷺ - : (ومن بايع إماما ٠٠) يشعر بأن طاعة الإمام واجبة ، أيا كان وضع ذلك الإمام ، ومهما كانت منزلته وصفته ، ولذا رأيناه - ﷺ - فى مواضع كثيرة من أحاديثه يذهب إلى ذلك ، ويوجب السمع والطاعة للإمام ولو كان عبدا حبشيا ، يقول - ﷺ - : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم

عبد حبشى »(١٠) ... ويقول ـ ﷺ ـ « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة »(١١) .

وقوله ـ ﷺ ـ : (فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه) ، بيان للبيعة ، وكانت عادة العرب إذا وجب البيع أن يضرب أحدهما على يد صاحبه ، فالصفقة : ضرب اليد على اليد ، ثم استعملت فى العقد ، فقيل : بارك الله فى صفقة يمينك ..

فالتعبير (أعطاه صفقة يده) كناية عن إتمام البيعة ، والتعبير بالثمرة وإضافتها إلى القلب ، فى قوله : (ثمرة قلبه) يدل على وجوب الإخلاص فى البيعة ، وترك الغش والخديعة ، وإطلاق الثمرة على العمل الخالص ، النابع من القلب ، استعارة تصريحية ، وهذا ينبىء بأن الإخلاص ينفع صاحبه ويفيده ، فهو ثمرة تجنى وتقطف ، كما ينتفع المرء بثمار الأشجار والنخيل والأعناب ..

وفى قوله ـ ﷺ ـ : (فليطعه إن استطاع) حذف جواب الشرط ودل عليه الأمر قبله ، والتقدير : فإن استطاع أن يطيعه فليطعه ، وهذا الحذف يشعر بأن طاعة الإمام من الأمور التى تستثقلها النفس ، وتنزع إلى مخالفتها ، كما يدل على ذلك التعبير بالأداة (إن) دون (إذا) فإن الشرط وهو (استطاع) ينبغى أن يكون واقعا ومحققا ، ومعبرا عنه بإذا ، ولكن نظرا لاستثقال النفس تلك الطاعة ، ونزوعها إلى المخالفة عبر بالأداة (إن) ..

ولذا أوجب ـ ﷺ ـ السمع والطاعة للإمام فيما نحبه وفيما

---

(١٠) رواه أبو داود والترمذى .
(١١) رواه البخارى : ... والزبيبة بفتح الزاى وكسر الباء : قرحة تخرج فى اليد كالعرفة ، ونكتة سوداء فوق عين الحية ، والمراد : وصفه بالسواد وصغر الرأس تحقيرا له .

نكرهـه ؛ طالمـا أنه لا يأمـر بمعصية ، يقول - ﷺ - : « على المـرء المسـلم السمع والطـاعة فيما أحب وكـره ، إلا أن يؤمـر بمعصية ، فإذا أمـر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »(١٢) ٠

وأمـرنا بالصـبر على ما نكره من الأمير ، ولا نخـرج عليه وذلك حيث يقول - ﷺ - : « من كره من أميره شيئا فليصبر ، فإنه من خـرج من السلطان شبرا مات ميتـة جاهلية »(١٣) ٠

أما التعبير بالأداة (إن) فى قـوله - ﷺ - : (فإن جـاء آخـر ينازعه) فللدلالة على أن منازعة الإمام الذى بايعـه الناس ، وأعطـوه صفقة أيديهم ، وثمـرة قلوبهم ، ينبغى أن تكون من الأمـور المستبعدة ، وألا يقبـل عليها أحـد ، أو يفكر فيهـا ٠٠

والأمـر بضـرب العنق فى قوله - ﷺ - (فإن جاء آخـر ينازعه فاضـربوا عنـق الآخـر ٠٠) يدل على المبالغة فى الوفاء ببيعـة الإمام ، والدفاع عنـه ، ومنـع الخـروج عليـه ، فهذا واجب على المسلمين ، وينبغى عليهم أن يبذلوا أقصى جهودهم فى الدفاع عن الإمام ، ولذا لم يقـل - ﷺ - : فإن جـاء آخـر ينـازعه فامنعـوه ، أو فقاومـوه ، وإنما قال : (فاضربوا عنـق الآخـر ٠٠) ٠

ويشعر حـرف الفـاء فى قوله : (فاضربوا عنـق الآخر) بوجوب المبـادرة وسرعة التصـدى للخارجين على الإمام ، وعدم التـوانى فى مقاومتهم ، ومنع خروجهم ٠٠

---

(١٢) رواه البخارى ومسلم ٠
(١٣) رواه البخارى ومسلم ٠

وقد وضـع الظاهر موضـع الضمير فى قوله : (فاضـربوا عنـق الآخـر) إذ مقتضى الظاهـر أن يقال : فإن جاء آخـر ينازعه فاضربوا عنـقه ، وذلك منعـا لتوهم غير المـراد ، فإن التعبير بالضمير قد يوهم أن المـأمور بضرب عنقـه عند مجىء المنـازع هو الإمام ، لا من جـاء ينازعه ، فمنعـا لهذا التوهم وجب إخـراج الكلام على خـلاف مقتضى الظاهر بوضـع الاسم الظاهر (الآخـر) موضـع الضمير .. والله تعالى أعلى وأعلم ، وصلى الله على سيدنا محمـد وعلى آلـه وصحبه وسلم .

★ ★ ★

القســـم الثـــالث

نصـــوص من الشعـــر

١ ـ من قصيدة (ابى ذؤيب الهــذلى)

« أمــن المنـــون وريبهـــا تتوجــع »

٢ ـ من قصــيدة (عبــدة بن الطبيب)

« ابنى إن قد كبرت ورابنى بصرى .. »

٣ ـ من قصــيدة (الشنفــرى الأزدى)

« ألا ام عمرو اجمعت فاستقلت »

(١)

من قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء بنيه :

أمن المنون وريبها تتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع

قالت أميمة : ما لجسمك شاحبا
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا
إلا أقض عليك ذاك المضجع

فأجبتها : أما لجسمى أنه
أودى بنى من البلاد فودعوا

أودى بنى وأعقبونى غصة
بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم
فتخرموا ولكل جنب مصرع

فغبرت بعدهم بعيش ناصب
وإخال أنى لاحق مستتبع

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
فإذا المنية أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

فالعين بعدهم كأن حداقها
سملت بشوك فهى عور تدمع

حتى كأنى للحوادث مروة
بصفا المشرق كل يوم تقرع

وتجـــادى للشـــامتين أريهـم
أنى لـريب الدهـــر لا أتضعضــع
والنفس راغبـــة إذا رغبتهـــا
وإذا تــرد إلى قليـــل تقنـــع
ولئن بهم فجـــع الزمـان وريبـــه
إنى بأهـــل مـــودتى لمفجـــع
كم من جميـــع الشمل ملتئم القوى
كانـوا بعيـش قبلنـــا فتصـــدعوا
والدهـــر لا يبقى على حـــدثانه
جـون السـراة لـه جـدائد أربع
صخب الشـوارب لا يـزال كأنـه
عبـد لآل أبى ربيعـــة مسبـــع
أكـل الجميـم وطـــاوعته سمحـج
مثـــل القنـــاة وأزعلتـه الأمـــرع
بقـــرار قيعـــان ســقاها وابـل
واه فأثجـــم برهـــة لا يقلـــع
فلبثـن حينـــا يعتلجـن بروضـــه
فيجـد حينـــا فى العـــلاج ويشمع
حتى إذا جـــزرت ميــاه رزونــه
وبأى حــين مـــلاوه تتقطـــع
ذكـر الـورود بهـا وشـاقى أمـــره
شـــؤم وأقبـــل حينـــه يتتبـــع

ملاوة

★ ★ ★

هـذه الأبيات من قصيدة طويلة لأبى ذؤيب الهذلى ، وهو شـاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسـلام ، فأسلم وحسن إسـلامه ، وقد مات فى خـلافة عثمان بن عفـان - رضى الله عنـه - وهو راجـع من غـزو الروم ، ودفن بالطـريق(١) ..

وهذه القصيدة قالهـا فى رثاء بنيـه الخمسـة الذين هلكوا جميعـا فى عام واحـد ، حيث أصـابهم الطاعون ، وكانوا رجـالا ، ولهم بأس ونجـدة ، هاجروا إلى مصـر ، فاصيبوا بالطاعون وهلكوا جميعـا فى عام واحد ، فحزن عليهم ، وبكاهم بهذه القصيدة الرائعة(٢) ..

وقد صـور فى القصيدة آلامـه وأحـزانه ، واستطاع من خلال وصفه للحمار الوحشى والثـور ، والبطـل الفارس الكامل السـلاح ، وتصويره لهـلاك كل بعد أن كان يحيـا حيـاة سعيدة ، استطاع أن يظهـر لنا كيف يتغير الحـال ، وكيف ينقلب الأمـر من ضد إلى ضد فى سـرعة خاطفة ، وفجأة بلا مقدمات ، وكأنه يتخذ من هـذه الأنماط الثلاثة عـزاء لنفسه ، وتسلية لهـا ، وحثـا على الصبر والمصـابرة ، فتلك طبيعـة الحيـاة الدنيـا ، وطبيعـة الخـلائق ، لا يبقى أحد على حدثان الدهـر ، وفى تكراره لهـذا المقطـع : (والدهـر لا يبقى على حـدثانة) عنـد بداية حديثه عن كل من الحمـار والثـور والبطـل ، وإيثـار التعبير بكلمـة (حدثان) وما تشعر به من دوران وتقلب واضطراب ، وعدم استقرار ، فى هـذا ما يحث على الصبر ، ويبدد الألم والحـزن ، وتسلية وعـزاء للنفس ، وكان أبا ذؤيب يلقى عليـه بهمومه وأحـزانه ، ويجـد فيـه متنفسا لهـا(٣) .

بدأ أبو ذؤيب قصيدته بهذا الاستفهام الإنكارى : أمن المنـون وريبها

---

(١) انظر المفضليات للضبى : ٤١٩ .
(٢) انظر شرح أشعار الهذليين للسكرى ج ١ ص ٣ .
(٣) ارجع إلى القصيدة كاملة فى المفضليات : ٤٢١ .

تتوجع ؟ وقد جـرد من نفسـه إنسـانا على طـريقتهم فى بدء قصائدهم أحيـانا ، إذ يجـرد الشـاعر من نفسـه شخصـا أو شخصين ويخاطبهما موجها إليهما ما يريد من معان ، كما فى معلقة امرىء القيس :

قفـا نبـك من ذكـرى حبيب ومنزل
بسـقط اللـوى بين الدخـول فحومل

وكما فى بائيـة ذى الرمـة :

ما بال عينـك منهـا المـاء ينسـكب
كأنه من كـلى مفـــرية ســـرب

وكما فى قول الأعشى :

ودع هـــريرة إن الـركب مرتحـــل
وهـل تطيـق وداعـا أيهـا الرجـل

وقـول المتنبى :

لا خيـــل عنـدك تهـديها ولا مـال
فليسعد النطـــق إن لم يسعـد الحـال(٤)

جـرد أبو ذؤيب من نفسـه شخصا وسـأله منكرا توجعه من ريب المنيـة وفجائعها : أمن المنون وريبها تتوجـع ؟ لا ينبغى أن يكون ذلك التوجع ، لأن الدهـر لا يعتب أحدا جـزع من مصـائبه ، فيراجعه ويرد إليـه ما يحب ، ويذهب عنـه ما أتى به من فجـائع ومصـائب ، ولذا لا ينبغى التوجع من ريب المنون ...

---

(٤) التجـريد : هو أن ينتزع من أمـر ذى صفة أمـر آخـر مثله فى تلك الصفة مبالغـة فى كمالها فيـه ، كقولهم : لى من فـلان صـديق حميم ، لئن لقيت فـلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سـألته لتسـألن به البحـر ، وهو فن من فنون البديع ، وله صـور عديدة إحداها مخاطبة الإنسان نفسه ، كما رأينا فى الأبيات المذكورة ..
وارجع إلى كتابنا : علم البديع جـ ٢ ص ٧٩ لتقف على صـور التجريد ومزاياها البلاغية .

وقد تخير أبو ذؤيب من الألفاظ ما يدل على حزنه الشديد لموت بنيه ، وعلى تغير حاله من بعدهم ، تأمل الألفاظ : (ابتذلت ... أقض عليك ذاك المضجع .. غصة .. عبرة لا تقلع .. تخرموا .. غبرت بعدهم ..) ، فهذه الألفاظ تبنيء بمدى حزنه ، وتغير حاله بعد هلاك أبنائه ..

وقد تساءل متعجبا وأجرى سؤال التعجب على لسان أميمة ، وأطال فيه ليصور حاله ، ويكشف عما ألم به : (ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ...؟ أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذلك المضجع ..؟ ثم أرخى لنفسه العنان وأفاض فى الإجابة مبرزا أسباب آلامه ، وكاشفا عن كوامن أحزانه ...

وقد امتلأت الأبيات بالصور البيانية ، والتراكيب والأبنية ، التى تكشف عن حالة أبى ذؤيب ، وتجلى همومه وآلامه ، فتنكير (غصة ، وعبرة) فى قوله :

أودى بنى واعقبونى غصة
بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

يدل على التعظيم والتهويل ، ولذا وصف العبرة بقوله (لا تقلع) فهى تستمر به ولا تفارقه لشدتها وعظمها ، ومعنى الغصة : ما ينشب فى الحلق مما لا يساغ ، ويتوقف فيه فلا يدخل ولا يخرج ، قال تعالى : « **إن لدينا أنكالا وجحيما • وطعاما ذا غصة وعذابا اليما** »(٥) .

وإسناد (ناصب) إلى الضمير العائد إلى العيش فى قوله :

فغبرت بعدهم بعيش ناصب
وإخال أني لاحق مستتبع

(٥) المزمل : ١٢ ، ١٣ .

إسناد مجـازى ، حيث أسند اسم الفاعل إلى مفعـوله ، **كما فى** قوله تعـالى : **« فأما من ثقلت موازينـه . فهو فى عيشة راضية »(٦) ،** فالعيش لا يرضى ولا ينصب ، وإنما صاحبه هو الذى يرضى به ، **أو ينصب** فيـه ، أى : يشقى ويشـتد عليـه أمره فقـد أفاد التجوز كمال المبـالغة فى رضا المؤمنين الذين ثقلت موازينهم بنعيم الجنات ، كما أفاد فى البيت كمال المبالغة فى شقاء أبى ذؤيب ، وشدة نصبه فى عيشه بعد هلاك بنيه، ولذا آثرالتعبير عن لبثه وبقائه بعدهم بقوله : (غبرت) أى: بقيت ومكثت، فلفظ (غبرت) ينبىء بالأسى والحزن والعبوس ، قال تعالى : **« ووجوه يومئذ عليها غبـرة . ترهقها قتـرة . أولئك هم الكفرة الفجرة ..»(٧)**

وكان أبو ذؤيب حريصـا على الدفاع عن أبنـائه ، ومنـع الأذى عنهم ، ولكن المنية تخرمتهم ، وأنى للمنية أن تدفع :

ولقـد حـرصت بأن أدافـع عنهم
فـإذا المنيـة أقبلـت لا تدفـع

إنها سبع فاتك ، إذا أنشب أظفـاره قضى على فريسته ، ولا شىء ينفـع فى دفعـه ، وإنقـاذ فريسته من بين براثنه ، وقد أبدع فى تصوير هـذا المعنى حين قال :

وإذا المنيـة أنشـبت أظفـارها
ألفيـت كـل تميمـة لا تنفـع

ولا يخـلو كتـاب من كتب البـلاغة من الاستشهـاد بهـذا البيت للاستعـارة المكنيـة ، حيث شبهت المنيـة بالسبـع الفـاتك ، ثم حذف المشبه به ورمـز له بشىء من لوازمه وهو الأظفـار ، وإضـافة الأظفار إلى المنيـة استعـارة تخييلية ، وهى قرينة الاستعارة المكنية ..

---

(٦) القـارعة : ٦،٧ .
(٧) عبس : ٤٠ - ٤٢ .

صور أبو ذؤيب المنية التى تخطفت أبناءه فى صورة مخيفة لا يتأتى دفعها ، ولا ينفع معها تميمة ، فقد جعلها سبعا مخيفا، وجعل لها أظفارا تنشبها فى فريستها ، فلا الفريسة تستطيع المقاومة ، ولا أحد يستطيع أن ينجيها ، ولذا كان هلاكهم كأنه هوى لهم قد اعتنقوه ، وتسابقوا إليه ، وخالفوا ماكان يهواه أبوهم ، وهذا معنى قوله :

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم

فتخرموا ولكل جنب مصرع(٨)

جعل هلاكهم هوى هووه ، فتسابقوا إليه ، وهذا يشعر بسرعة هلاكهم ، وشدة اختطافهم ، وهم لم يهووا الموت حقيقة ، وإنما هذا تمثيل لسرعة اختطافهم ، ففى البيت استعارة تمثيلية ، حيث مثل تخرم المنية إياهم وسرعة اختطاف الموت لهم بحال من تنافسوا فى شىء هووه واعتنقوه ، فسبقوا إليه ، تاركين ما عداه .

ومما يصور سرعة الأخذ بناء الفعل للمفعول فى قوله (فتخرموا) وكأن قوة خارقة قد اختطفتهم فأودت بهم ، ونحوه قول الله عز وجل : « **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين** »(٩) .

فحذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول فى قوله : (فغلبوا ... وألقى) يصور سرعة الغلبة والإلقاء ، وكأن يد القدرة قد

---

(٨) هوى بفتح الواو وتشديد الياء : اسم مقصور مضاف إلى ياء المتكلم ، وهذه لغة هذيل ، يقولون فى نحو : هواى وعصاى وتقاى : هوى وعصى وتقى .

(٩) الأعراف : ١١٩ ، ١٢٠ .

القتهم سجدا ، وحققت الغلبة لموسى عليهم فى سرعة خاطفة ، ووراء حذف الفاعل فى قوله (فغلبوا) سر آخر وهو الا يتوهم أن لموسى - عليه السلام - دخلا فى غلبتهم ، لو قيل مثلا : فغلبهم موسى(١٠) .

ثم وصف حالته بعد فراقهم ، وملازمة البكاء له ، وتتابع الحوادث والشدائد عليه ، فقال :

فالعين بعدهم كأن حداقها

سملت بشوك فهى عور تدمع

حتى كأنى للحوادث مروة

بصفا المشرق كل يوم تقرع

يصور كثرة بكائه وتتابعه ، فيصف عينيه والدموع تتوالى منهما دون انقطاع ، كأن حدقتيهما قد فقئتا بشوك فأصابهما العور ، فأخذ الماء ينسكب منهما دائما ، وقد بالغ فى وصف العينين ، حيث جعل السمل (الفقء) للحدقتين وما حولهما ، فقال : (كأن حداقها) .

كما قالوا : امرأة حسنة اللبات ، وإنما لها لبة واحدة ، ورجل ذو مناكب ، وهما منكبان ، وجمل غليظ المشافر وهما مشفران ، وقد أرادوا بالجمع المبالغة فى وصف اللبة والمنكبين والمشفرين ، والدلالة على حسن اللبة وجمالها ، وعلى عظم المنكبين والمشفرين وضخامتهما(١١) ..

---

(١٠) ارجع إلى كتابنا علم المعانى ج ١ ص١٠٣ .

(١١) اللبة هى وسط الصدر والمنحر ، وعندما بالغوا فى حسن اللبة وجمالها فقالوا : (إنها لحسنة اللبات) كأنهم جعلوا كل جزء منهما لبة ، ثم جمعوا على هذا .. انظر لسان العرب مادة (لبب) .



ولما بالغ فى وصف إصابة العينين ، جعل الدمع ينسكب منهما دون انقطاع ، ودل على ذلك بالتعبير بالفعل المضارع الذى يفيد التجدد الاستمرارى (فهى عور تدمع) ووراء كثرة البكاء وتتابعه تمكن الآلام والأحزان ٠٠

ثم يصور فى البيت الثانى تتابع الحوادث وتوالى الشدائد عليه ، فيشبه نفسه بالمروة التى تقرع كل يوم بمرور الناس عليها ، وقد آثر التعبير بالمشرق وهو المصلى ، لكثرة مرور الناس به(١٣) ٠

والتعبير بالقرع فى قوله : (كل يوم تقرع) يصور شدة المصائب وشدة وقعها عليه ، كما يدل المضارع على تجددها واستمرارها ، وهم يقولون : (قرعت مروة فلان) إذا أصابته مصيبة تشق عليه ٠٠

ثم ذكر أن هذه الآلام وتلك الأحزان لا تظهر عليه ، لأنه يتجلد ويتصبر حتى لا يشمت الشامتون :

وتجلدى للشامتين أريهم　　　انى لريب الدهر لا أتضعضع

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر أنماط كانت من القوة بمكان ، تحيا حياة سعيدة ، وفجأة يتعكر صفوها ، لأن الدهر لا يبقى على حدثانه شىء ، بل تمتد الحوادث والشدائد والمصائب لتهلك كل قوى ، وتقضى على كل شجاع ٠

فذاك حمار جون السراة ، أى : أسود الظهر ، قوى

---

(١٣) المروة جمعها : مرو ، وهى الحجارة البيض الصغيرة ملء الكف يقدح منها النار ، والصفا : الصخرة العريضة ، والمشرق : المصلى ٠

عبداً

صخب الشوارب ، يشبه فى قوته عبد لآل أبى ربيعة ، قد أهمل مع السباع فصار كأنه سبع لخبثه وقوته ، أو هو عبد قوى شديد الصوت ، قد وقع السباع فى غنمه فأخذ يصيح ، ذلك الحمار قوى يشبه هذا العبد ، ويكثر من النهيق « صخب الشوارب » ومعه أتان أربع قد طاوعته ، وهى طويلة (سمحج) مثل القناة ، وقد أكل النبت الذى كثر فصار كأنه جمة (أكل الجميم) فصار نشيطا ، حيث (أزعلته الأمرع) أى : جعلته نشيطا قويا .

وقر الماء فى قيعان فى ذلك المكان ، حيث نزل وابل فاثجم وثبت ولم يقلع ، وأخذت الأتان تمرح فى هذا الروض ، ويعض بعضها بعضا ، وتجرى هنا وهناك ، كل ذلك من فرط النشاط.

وبعد حين جزرت مياه رزونه ، أى : غارت مياه المطر من أماكنها ، فأخذ الحمار يتذكر العيون القديمة ، التى كان يردها قبل نزول الوابل وتجمعه فى هذا المكان ، الذى رتع فيه مع أتانه زمنا ، انتهى زمن الرخاء بغور الماء ، وحل شقاء الحمار مع أتانه ، فشاقى أمره شؤم ، وأقبل حينه يتتبع ..

واستمر أبو ذؤيب يصف شقاء الحمار مع اتانه ، وهو يبحث عن عيون الماء القديمة ، وأبدع فى تصوير ذلك أيما إبداع ، حتى صور هلاك الحمار وأتانه على يد قانص متلبب ، أبدهن حتوفهن ، وانتقل إلى الثور ، ثم إلى البطل المقنع ، المستشعر حلق الحديد ، وهو يهدف من وراء وصف هذه الأجناس ، وتصوير ما حدث لها ، تسلية النفس ، وحثها على الصبر عند الشدائد ، فإن الدهر لا يبقى على حدثانه أحد ..

* * *

- ٢ -

من قصيدة عبدة بن الطبيب ينصح أبناءه :

أبنى إنى قد كبرت ورابنى
بصرى وفى لمصلح مستمتع

فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا
تبقى لكم منها مآثر أربع

ذكر إذا ذكر الكرام يزينكم
ووراثة الحسب المقدم تنفع

ومقام أيام لهن فضيلة
عند الحفيظة والمجامع تجمع

ولهى من الكسب الذى يغنيكم
يوما إذا احتضر النفوس المطمع

ونصيحة فى الصدر صادرة لكم
مادمت أبصر فى الرجال وأسمع

أوصيكم بتقى الإله فإنه
يعطى الرغائب من يشاء ويمنع

وببر والدكم وطاعة أمره
إن الأبر من البنين الأطوع

إن الكبير إذا عصاه أهله
ضاقت يداه بأمره ما يصنع

ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم
إن الضغائن للقرابة توضع

واعصوا الذى يزجى النمائم بينكم
متنصحا ذاك السمام المنقع

يزجى عقـــاربه ليبعــث بينــكم
حــربا كما بعث العــروق الأخــدع

حــران لا يشفى غليــل فــؤاده
عســل بمــاء فى الإنــاء مشعشــع

لا تأمنــوا قــوما يشــب صــبيهم
بــين القــوابل بالعــداوة ينشـــع

فضلت عداوتهم عــلى أحلامهــم
وأبــت ضبـاب صــدورهم لا تنــزع

قــوم إذا دمس الظــلام عليهــم
حدجـوا قنــافذ بالنميمــة تمـــزع

أمثـال زيـد حــين أفسد رهطــه
حــتى تشـتت أمرهــم فتصـدعوا

إن الذيــن ترونهــم إخـــوانكم
يشـفى غليــه صدورهم أن تصـرعوا

* * *

عبـدة بن الطبيب شـاعر مخضـرم ، أدرك الإسـلام فأسـلم ، وكـان يترفـع عن الهجـاء ويـراه ضـعة ، ويـرى تركـه مروءة وشرفا، وهـو صـاحب أرثى بيت قالتـه العـرب ، ألا وهـو :

وما كـان قيس هلـكه هلك واحــد
ولكنــه بنيــان قـــوم تهــــدما

والبيت من قصيدة لــه فى رثـاء قيس بن عاصـم المنقرى التميمى، قـال أبـو عمـرو بن العـلاء : هـذا البيت أرثى بيت قيـل ، وقـال ابن الأعـرابى : هــو قــائم بنفســه مالــه نظيــر فى الجاهلية ولا فى الإســـلام(١٣) ..

---

(١٣) انظر المفضليات ١٣٤ .

تقدمت به العمر ، وأصابه الكبر ، ووجه إليهم تلك النصائح التى اشتملت عليها أبيات القصيدة ..

وقد بدأ قصيدته بنداء الأبناء :

أبنى إنى قد كبرت ورابنى
بصرى وفى لمصلح مستمتع

والنداء تنبيه وإيقاظ ، ثم أضافهم إليه (بنى) وتلك الإضافة تنبىء بحبه وعطفه ، ثم ذكر ما يضاعف من الانتباه ، ويزيد من الإيقاظ (إنى قد كبرت ، ورابنى بصرى) يقال : رابه الشىء إذا تيقن منه الريبة ، وأرابه إذا شك فيه ، فعبدة قد تيقن الريبة ، وظهر ضعف بصره ، ووهن عظمه ، وقوى رأيه ، حيث أصقلته التجارب ، ولذا هتف معلنا : (وفى لمصلح مستمتع) ..

ومراد عبدة من هذا الإيقاظ أن يهيىء الأبناء لتلقى ما سيسديه إليهم من نصائح ، ولم يكتف بما ذكره من تنبيه فى البيت الأول ، بل أكد بالقسم فى البيت الثانى :

فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا
تبقى لكم منها مآثر أربع

فاللام موطئة للقسم ، والمعنى : فوالله إن هلكت لقد بنيت مساعيا ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ، وفى قوله : (بنيت مساعيا) استعارة مكنية ، حيث شبه المساعى بالبناء العظيم ثم حذف المشبه به ورمز له بلازمه وهو بنيت ، وأضاف هذا اللازم إلى المساعى تخييلا ، وهذا التخييل هو قرينة الاستعارة المكنية ، وقد سموه استعارة تخييلية ... ولا يخفى عليك أن هذا التصوير قد جسد المساعى ، وأبرزها فى معرض المشاهد المحس .. وتنكير (مساعيا) للدلالة على التعظيم والتفخيم ، فهى مساع عظيمة ، ولذا وصفها بالبقاء (تبقى

لـكم) وكـذا القـول فى تنكيـر (مآثـر) ثم ذكـر العـدد بعدهـا على طريقـة (التوشيع) وهـو نـوع من أنـواع الإطنـاب ، حيـث يُذكـر العـدد مثنًى أو جمعًا ثم يفسـر ، كمـا فى قـوله ـ ﷺ ـ « اثنتـان مغبون فيهما كثير من النـاس : الصحة والفراغ » .

وقـول ابن وهب :

ثلاثـة تشـرق الدنيـا ببهجتهـا

شمس الضحى وأبو إسحاق والقمـر

ففى ذكـر العـدد إبهـام فسـر ووضـح بمـا بعـده ، وللإيضاح بعـد الإبهـام أثـر فى تمكـين المعنى فى النفس ، إذ الإبهـام يجعـل النفـس تتطـلع وتشـتاق إلى البيـان والإيضاح ، وعندما يأتى الإيضاح والبيـان بعـد ذلك يتمـكن فى النفـس فضـل تمـكن ، ويسـتقر فى أعماقهـا ..

فعبـدة يذكـر أنـه بنى مساعيا تبـقى لأبنـائه ، منهـا مآثـر أربـع ، ثم فصـل هـذه المـآثر الأربـع فى الأبيـات التاليـة :

ذكـر إذا ذكـر الكـرام يزينـكم

ووراثـة الحسـب المقـدم تنفـع

ومقـام أيـام لهـن فضـيلة

عنـد الحفيظـة والمجـامع تجمـع

ولـهى من الكسـب الذى يغنيـكم

يومـا إذا احتضر النفوس المطمـع

ونصيحة فى الصـدر صـادرة لـكم

مادمت أبصر فى الرجال وأسمع(١٤)

---

(١٤) الذكر : الشـرف والصيت ، والمقام بفتح الميـم : القيام بالصـلح فى الخصومة ، أو القيام فى الخطبة ، أو القيام بقضاء حوائج

تنكيــر (ذكــر ، ومقــام أيــام ، ونصيحــة) يــدل على التعظم ، أمــا تنكيــر (لــهى) فــأرى أنــه للدلالة على التحقيــر والتقليـــل ، ولــذا وصــف الذكــر بقــوله (يزينــكم إذا ذكــر الكــرام) ووصــف (مقــام أيام) بقـــوله : (لهــن فضــيلة عنــد الحفيظــة) ووصــف النصيحة بأنهــا فى الصــدر ، وأمــا اللهى فقــد وصفها بقــوله (من الكســب الذى يغنيــكم يومــا) وهــذا ينبىء بمــا كــان عليــه عبــدة من إيمــان وخــلق ، وحــرص على كســب الفضائل ، وتــرك الرذائل ، ولــذا ترفــع عن الهجــاء ـ كمــا ذكــرنا ـ ولــم يحفــل بجمع المــال ، وإنمــا حصــل منــه (لــهى) تغنى عند الطمــع وتغيــر النــاس ..

ولــذا أيضــا صــور الطمــع فى صــورة قبيحــة كريهة مخيفــة ، ينبغى أن تقــاوم وتحــارب ، فقــد صــوره عــدوا أحــاط بالنفــوس وحاصرهــا وعلى النفــوس أن تقــاومه وتحــاربه ، ففى قــوله (أحتضر النفــوس المطمــع) استعــارة مكنيــة ، حيث شبــه الطمــع بعــدو قــد حــاصر النفــوس وأحــاط بهــا ، ثم حــذف المشــبه بــه وهــو (العدو) ورمــز لــه بلازم من لوازمه وهــو (حصــر) وأثبت هــذا اللازم للمشبه (المطمــع) على ســبيل الاستعارة التخييلية ، وهــذه التخييلية هى قرينــة الاستعارة المكنيــة ..

وبعـــد التوشــيع الذى اختتمــه عبــدة بقــوله : (ونصــيحة فى الصــدر) أخــذ يوصيهم ، ويســدى إليهــم نصــائحه ، فأوصاهم بتقوى الله ، وببــر والدهــم وطــاعة أمــره ، وبصــلة القــرابة ، والتخــلى

=

النــاس ونحــو ذلك ، والحفيظة : الغضــب ، واللهى : بضــم اللام : العطايا ، مفردها : لهــوة ، وأصلها : الحفنة من الطعام تطــرح فى الرحى ، والمــراد بهــا : ما خلفه لهــم من مــال ، واحتضر النفوس المطمــع : أحاط بهــا ..

عن الضغينة لأنها سرعان ما تتفشى وتنتشر بين القرابة ، وعندئذ تضعها ، وتضع معها الود والحب والنفع وغير ذلك مما يكون بين القرابة ، ثم حذرهم من العدو الذى يتظاهر بالنصح ويخفى عداوته ..

ومما يلاحظ أنه قد أطال فى تحذيره من العدو المتنصح ، الذى يتظاهر بالنصح ، وأوجز إيجازا فيما قبله ، ولعل ذلك يرجع إلى أن عبدة قد أحسن تربية أبنائه ونشأهم على مبادىء الدين وخلق الإسلام ، فهم يتقون الله ويبرون الوالدين ، ويصلون الرحم ، ولا يحتاجون فى مثل هذا إلا إلى مجرد التذكير ، أما العدو الذى يزجى النمائم والعقارب ، ويتظاهر بالنصح ، فهذا ما يحتاجون إلى التحذير منه ، والكشف عن خداعه وأضراره ولذا أطال عبدة فى وصفه لهم ، وتصوير ضرره ، والكشف عن مكره وخداعه ..

ولنتأمل الأبيات :

واعصوا الذى يزجى النمائم بينكم
متنصحا ذاك السمام المنقع
يزجى عقاربه ليبعث بينكم
حربا كما بعث العروق الأخدع
حران لا يشفى غليل فؤاده
عسل بماء فى الإناء مشعشع(١٥)

---

(١٥) يزجى : يسوق ، والمتنصح : الذى يتشبه بالنصحاء ، والسمام : مفردها سم ، والمنقع : المعتق من قولهم : أنقع السم : عتقه ، والأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق . والغلة : شدة العطش ، والمراد : الذى يتلهب جوفه من شدة الغيظ ، والمشعشع : الممزوج ..

فـذاك المتنصـح يزجى النمـائم ، ويزجى عقـاربه ، ويبعـث الحـرب بينـكم والعـداوة كمـا يبعـث الأخـدع العـروق ، وهـو السم المنقـع ، قـد امتـلأ فـؤاده غيظـا ، فهـو حـران لا يشـفى غليـل فـؤاده إلا أن تشتعل نار العداوة بينكم ..

الصـور البيانية قـد ازدحمت فى الأبيـات لتبـرز حقيقـة ذلك المتنصـح وتكشـف عن ضرره ، ففى قـوله : « يزجى النمـائم ... يزجى عقـاربه » استعـارتان مكنيتـان ، حيث شبهت النمائم والعقـارب بمـا يزجـى ، ثـم حـذف المشـبه بـه ، وأسـند لازمـه للمشـبه ، والاستعارتان تكشفان عن حقيقـة المتنصح ، فهـو يسـوق إليهـم ، وليت ما يسـوقه خيـر أو نفـع ، كـلا إنـه يسـوق أذى ، يسـوق نمـائم وعقـارب تبعـث بينهـم العـداوة والبغضـاء .

وفى قـوله : « ذاك السـمام ... ليبعث بينـكم حـربا كمـا بعث العـروق الأخـدع » تشبيهـان ، الأول تشبيـه بليـغ ، حـذفت أداتـه ووجهـه ، حيث شـبه المتنصـح بالسـم المنقـع فى الإهـلاك والضر . والثـانى تشـبيه مركـب ، حيث شبهت هيئـة المتنصـح ، وهـو يسوق عقـاربه ونمـائمه ليبعث بينهـم الحـرب والعـداوة ، بهيئة الأخـدع عندما يضـرب فتستجيب له سائر العروق ..

ويسـتمر عبـدة فى وصـف أولئـك المتنصحين فيذكـر أنهـم شبوا على العـداوة وسـقوا إياهـا منـذ أن استقبلتهم القـوابل ، حيث وضع السعوط فى أنوفهـم ، والوجـور فى أفواههم ، فنشـأوا على العداوة ، وزادت عداوتهـم على أحلامهم ، وتأصـل الحقـد فى صدورهم ، وهـذا ما نـراه فى قـوله :

لا تأمنـوا قومـا يشـب صـبيهم
بـين القـوابل بالعـداوة ينشـع

فضلت عداوتهم على أحلامهم
وابت ضباب صدورهم لا تنزع(١٦)

فالبيت الأول كناية عن تنشئتهم على العداوة ، والثانى كناية عن تأصل الأحقاد فى صدورهم ، فهى لا تنتزع .. وقد استعيرت الضباب للأحقاد التى تملأ صدورهم ، وتدل هذه الاستعارة على تغلغل الأحقاد وتشعبها فى الصدور ، وصعوبة انتزاعها منها ، كما يصعب صيد الضب والتمكن منه فى جحره ..

وهم لا ينامون ليلهم ، بل إذا حل الظلام نشطوا بالنميمة ، فهم :

قوم إذا دمس الظلام عليهم
حدجوا قنافذ بالنميمة تمزع

أمثال زيد حين أفسد رهطه
حتى تشتت أمرهم فتصدعوا(١٧)

---

(١٦) القوابل : مفردها قابلة ، وهى التى تستقبل المولود ، وينشع من النشوع : ويقال له أيضا : نشوغ ، وهو السعوط الذى يوضع فى الأنف ، والوجور : ما يوضع فى الفم . يقال : ينشع الصبى والمريض ويوجران أى : يوضع السعوط فى أنفهما ، والوجور فى فمهما ، ويقال فلان منشوع بكذا أى : مولع به ، كأنه قد ربى عليه .

وفضلت بكسر الضاد : زادت ، والضباب بكسر الضاد مفردها: ضب ، والمراد بها : الأحقاد فى صدورهم ..

(١٧) دمس الظلام : ألبس واشتدت ظلمته ، وحدجوا : وضعوا الحدج ـ بكسر الحاء وسكون الدال ـ على البعير كى يرحلوا ، والحدج: مركب من مراكب النساء ، وتمزع : تمر مرورا سريعا ، يقال : مزع الفرس مزعا إذا أسرع .

والمراد بزيد : زيد بن مالك بن حنظلة بن مالك الأكبر ، وكان المنذر قد خطب لرجل من أصحابه باليمن امرأة من بنى زيد ، فأبوا أن يزوجوه ، فنفاهم وفرقهم ..

شبههم بالقنافذ عندما يشتد الظلام عليهم ، فهم لا ينامون ، بل يسهرون بالنميمة والاحتيال للشر ، وكذلك القنفذ يظل ليله أجمع يسير ولا ينام ، ومراد عبدة من التشبيه بزيد فى البيت الثانى أن يحث أبناءه على الاستجابة وقبول النصيحة ، والتيقظ والتنبه لما يدبره أعداؤهم من الأذى والشر ، فهو يريد أن يقول : إن ما أخبركم به حق وصدق ، وخبر يقين ، كصدق هذه القصة ، قصة زيد ورهطه ، وأنتم تعلمونها ..

أو يريد : لا ترفضوا نصيحتى ، وتنصرفوا عنها ، وتغفلوا عما يدبره الأعداء لكم ، فتكونوا فى الحمق والجهل مثل هذا الرجل الذى بدد قومه ..

أو يريد : لا تأمنوا عدوكم وتغتروا وتخدعوا بما يقوله لكم ، ويدعيه من النصح ، فتغفلوا عن مكامنه ، وما يدبره لكم فى الخفاء : حتى يبدد شملكم ويفرقكم ، كما فرق بنو زيد ..

ويختتم عبدة نصائحه بقوله :

إن الذين ترونهم إخوانكم
يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

ينبههم إلى الخطأ ، فإن الذين يعتقدون أنهم إخوان لهم ، ماهم إلا أعداء تتوقد صدورهم حقدا ، ولا يشفى غليل صدورهم إلا أن يصرعوا ويهلكوا ، ولذا عبر بالاسم الموصول لتنبه جملة الصلة إلى خطأ المخاطبين فيما يرونه ، ومثله قول الله عز وجل : « **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** »(١٨) فإن جملة الصلة (تدعون من دون الله) تفيد تنبيه المشركين إلى خطئهم فى عبادتهم غير الله تعالى ، فهم ليسوا إلا عبادا أمثالهم ..

---

(١٨) الأعراف : ١٩٤ .

هـذا ونجـد فى الأبيـات العـديد من الكنايات اللطيفـة ، ففى البيت الأول قـوله : (إنى قد كبرت ورابنى بصـرى) كناية عن الضعف والوهـن ، وقـوله : (وفى لمصـلح مسـتمتع) كنـاية عن سداد نصحه وقـــوة رأيـــه .

وفى البيت الرابـع قـوله : (والمجـامع تجمـع) كنـاية عـن شـدة الأمـر ، وفداحـة الخطب ، وفى البيت التاسـع قـوله : (ضاقت يـداه بأمـره) كنـاية عن عجـزه وانسـداد السـبل أمـامه ..

وفى البيت الرابـع عشر قـوله : (يشـب صـبيهم بين القـوابل بالعداوة ينشع) كناية عن التنشئة على العـداوة والبغضـاء ، وفى البيت الخامس عشر قـوله : (وأبت ضـباب صدورهم لا تنـزع) كنـاية عن تأصـل الحقـد فى صـدورهم ..

★ ★ ★

(٣)

قال الشنفرى الأزدى فى الغزل ووصف المـرأة :

ألا أم عمــــرو أجمعـت فاستقلـت
وما ودعـت جيـرانهــــا إذ تولـت

وقد سبقنـا أم عمــــرو بأمـــرها
وكانت بأعنـــــاق المطى أظلـــت

بعينى مـــا أمســت فباتت فأصبحت
فقضـت أمــــورا فاستقلـت فـولت

فوا كبـدا على أميمـــــة بعـــد ما
طمعـت فهبهـــا نعمـة العيش زلت

فيا جـــارتى وأنت غـير مليمــــة
إذا ذكــــــرت ولا بــــذات تقلـت

لقـد أعجبتنى لا سقـــوطا قناعهـــا
إذا ما مشـــت ولا بـذات تلفـــت

تبيت بعيـد النـوم تهـدى غبـوقها
لجـارتهـــا إذا الهــــدية قلـت

تحـــل بمنجـــا ة من الـلوم بيتهـا
إذا مـــا بيـــوت بالمذمـــــة حلـت

كأن لهـــا فى الأرض نسيا تقصــــه
على أمهــــا وإن تكلمـــك تبلـت

أميمـــة لا يخـــزى نثاهـــا حليلها
إذا ذكـــر النســـوان عفـت وجلـت

إذا هـــو أمسى آب قـــــرة عينــــه
مآب السعيـد لم يسـيـــل أين ظلـت

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت
فلو جن إنسان من الحسن جنت

فبتنا كأن البيت حجر فوقنا
بريحانة ريحت عشاء وطلت

بريحانة من بطن حلية نورت
لها أرج ما حولها غير مسنت

* * *

الشنفرى شاعر جاهلى من بنى الحرث بن ربيعة ، والشنفرى اسمه ، وقيل : لقب له ، ومعناه عظيم الشفة ، وهو ابن أخت تأبط شرا ، وكان أحد لصوص العرب المغيرين ، وأحد العدائين الثلاثة : تأبط شرا والشنفرى وعمرو بن براق ، كانوا من العدائين الذين يعدون على أرجلهم ، فلا يدركهم الطلب ، ولا تلحقهم الخيل ، وقد ضرب المثل بالشنفرى فى العدو فقيل : « أعدى من الشنفرى »(١) .

وهذه الأبيات من قصيدة له ، بدأها بالغزل والحديث عن المرأة وهى الأبيات التى بين أيدينا ، ثم اتبعها بوصف قوته وشدة بأسه ، ونعت سيفه ، وأشار إلى ثأره من قتل أبيه ، وفخر باستهانته بالحياة ، إلى آخر ما ذكر فى تلك القصيدة(٢) .

وقد أبدع الشنفرى فى حديثه عن المرأة فى هذه الأبيات ، والتنويه بمحاسنها ، والإشادة بأخلاقها ، وتسامى فى غزله ، فلم يهبط إلى

---

(١) انظر المفضليات : ١٠٨،٢٧ .
(٢) ارجع إلى القصيدة كاملة فى المفضليات : ١٠٨ .

ذكر الصفات الحسية فى المرأة ، والكشف عن مفاتنها ، على نحو ما رأينا فى كثير من الشعر الجاهلى ، بل ترفع عن ذلك ، واهتم بإبراز الصفات المعنوية كالحياء والعفة ، وإيجاز الحديث ، وكرمها لجاراتها ، ونفى الريبة عنها ، فإن أراد ذكر وصف من أوصافها الحسية أومأ إليه إيماء ، على نحو ما سنرى فى الأبيات ..

بدأ الشنفرى قصيدته بالتنويه بشأن أميمة ، فلم يذكرها باسمها بل بكنيتها (أم عمرو) وذلك تعظيما لها ، ورفعا من شأنها ، كما افتتح القصيدة بأداة التنبيه (ألا) وهى لا تستخدم إلا فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تنبيه وتوكيد ..

ثم أشاد بصفة محمودة فى المرأة ، وهى الكتمان وإخفاء شئونها بحيث لا يدرى بها أحد ، بل يفاجأ بها مفاجأة :

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت
وما ودعت جيرانها إذ تولت
وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها
وكانت بأعناق المطى أظلت(٣)

فقد أجمعت أمرها ، وتولت مرتحلة ، وما ودعت جيرانها ، ولا أطلعت أحدا على ما عزمت عليه ، بل استبدت واستأثرت به ، حتى كان رحيلها مفاجأة للجميع ، ولم يدر به أحد حتى أظلتهم بالإبل راحلة .

وفى قوله : (بأعناق المطى) مجاز مرسل علاقته الجزئية .

---

(٣) أجمعت : عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت ، وسبقتنا بأمرها : استبدت واستأثرت به ، وكانت بأعناق المطى أظلت ، أى : فاجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها .

حيث أطلق (الأعناق) وأراد : الإبل ، وإنما آثر التعبير عن الإبل بالأعناق ، لأنها مظهر حركتها ، فالإبل عندما تسرع فى السير تظهر حركتها تمام الظهور فى أعناقها ، ولذا قال كثير عزة فى وصف حركة الإبل عندما اشتد بها السير فى الصحراء :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولم يبصر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

فالمطى قد اشتد بها السير ، وسالت بها الأباطح ، وقد آثر كثير التعبير (بالأعناق) حيث تظهر بها حركة الإبل عند إسراعها ظهورا تاما ، ولا يخفى عليك المجاز فى كلمة (سالت) حيث استعير السيلان للسير ، كما لا يخفى عليك التجوز فى إسناد السيلان إلى الأباطح(٤)

ويصف الشنفرى أسفه وتألمه لسرعة رحيلها ، فيقول :

بعينى ما أمست فباتت فأصبحت
فقضت أمورا فاستقلت فولت

فوا كبدا على أميمة بعد ما
طمعت فهبها نعمة العيش زلت

فيا جارتى وأنت غير مليمة
إذا ذكرت ولا بذات تقلت(٥)

---

(٤) ارجع إلى هذه الأبيات فى كتابنا : دراسات بلاغية ٢٥ .

(٥) بعينى : يأسف أن يرى رحيلها ولا حيلة له ، وزلت : ذهبت ، من قولهم : زل عمره ، أى : ذهب ، ومليمة من قولهم : ألام ، إذا أتى بما يلام عليه ، وتقلت : تبغضت ، والمعنى : ليست بذات صفة يقال لها من أجلها : تقلت فلانة ، أى : تبغضت .

فقوله (بعينى) يدل على مبلغ أساه وشدة ألمه ، وقد صور سرعة رحيلها وتوليها تصويرا عجيبا (أمست فباتت فأصبحت فقضت أمورا فاستقلت فولت) توالت الأحداث كلمح البصر ، فتلك الفاءات ، وهذه الأفعال : أمسى ، بات ، أصبح ، قضى أمورا ، استقل ، تولى ، تشعر بالسرعة الخاطفة ، وتدل على مدى قصر الزمن الذى رحلت خلاله أميمة .

وقد أخذت معها قلب الشنفرى ، فهو حزين متألم (فوا كبدا على أميمة) ، هذا التعبير يدل على حرقة قلبه ، وشدة ألمه ، ومثله قول المتنبى :

وا حر قلباه ممن قلبه شبم

ومن بجسمى وحالى عنده سقم

ويسمى هذا أسلوب الندبة ، وهو أن ينادى من أجل التوجع أو التفجع ، ولا يجد الشنفرى أمامه إلا أن يصبر ويتصبر (فهبها نعمة العيش زلت) ، ثم يناديها (يا جارتى) وكان استخدام هذا الحرف (يا) الموضوع لنداء البعيد يؤذن بارتحالها وابتعادها عنه ، وعلى الرغم من بعدها عنه ، فإنها قريبة إليه ، محببة إلى نفسه ، ولذا أضافها إليه فى قوله : (يا جارتى) ثم وصفها بهذين الوصفين : (غير مليمة ... ولا بذات تقلت) ، فهى لا تأتى بما يلام عليه ، ولا يبغضها أحد ، لأنها لا تتصف إلا بكريم الصفات ، ولا تأتى عيبا ، ومن أجل ذلك حببت إلى النفوس ، فلم يبغضها أحد ..

ثم يزجى إليها فيضا من الكنايات التى تكشف عن أخلاقها ، وعظيم فعالها ، وذلك حيث يقول :

لقد اعجبتنى لا سقوطا قناعها

إذا ما مشت ولا بذات تلفت

تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها

لجارتها إذا الهدية قلت

تحل بمنجاة من اللوم بيتها

إذا ما بيوت بالمذمة حلت(٦)

كنى عن شدة حيائها بقوله : (لا سقوطا قناعها) ، فهى عندما تمشى لا يسقط قناعها ، وهذا يدل على شدة الحياء ، ثم كنى عن نفى الريبة عنها بقوله : (ولا بذات تلفت) لأن التلفت من فعل أهل الريبة ، وكنى فى البيت الثانى بقوله : (تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها) عن الأثرة والكرم ، فهى تهدى الغبوق لجاراتها وتؤثرهن به على نفسها لشدة كرمها ، وقوله : (إذا الهدية قلت) كناية عن الجدب ، حيث تنفذ الأزواد ، وتذهب الألبان ، وفى هذا الوقت تهدى أميمة غبوقها ليلا لجاراتها ، وذا يدل على كمال الكرم والأثرة ..

وفى البيت الثالث أربع كنايات ، اثنتان عن صفة ، واثنتان عن نسبة ، فقد كنى عن صفة العفة بالنجاة من اللوم ، إذ النجاة من اللوم تستلزم النجاة من موجباته كالزنا والفواحش وذا يستلزم العفة ، وكنى عن نسبة العفة إليها بنسبتها إلى بيتها فى قوله : (تحل بمنجاة من اللوم بيتها) ، ثم كنى فى الشطر الثانى عن نفى العفة بحلول المذمة ، وعن نفى العفة عن أصحاب تلك البيوت بنفيها عن بيوتهم (إذا ما بيوت بالمذمة حلت) ..

---

(٦) الغبوق بفتح العين : اللبن الذى يشرب بالعشى ، والفعل (تحل) بفتح التاء وضم الحاء مضارع (حل) ، وهو متعد بنفسه و (بيتها) مفعول به ، ويتعدى بالحرف فيقال : تحل فى بيتها ، وبالهمزة فيقال : (تحل) بضم التاء وكسر الحاء ، وقد روى البيت : يبيت بمنجاة من اللوم بيتها ، يرفع البيت على الفاعلية تجوزا فى الإسناد ..

ويضيف الشنفرى :

كأن لها فى الأرض نِسْيا تقصه
على أمِّها وإن تكلمك تَبْلَت

أميمة لا يخزى نَثَاها حليلَها
إذا ذكر النسوان عفت وجلت

إذا هو أمسى آب قرة عينه
مآب السعيد لم يسل أين ظلت(٧)

يصور شدة حيائها ، وأنها لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها ، فيشبهها فى ذلك بمن افتقد شيئا فهو يتبعه ويتعقب أثره ، وينظر فى الأرض بحثا عنه ، ثم يكنى عن إيجازها الحديث بقوله : (وإن تكلمك تبلت) ، والتعبير بإن يدل على ندرة تكلمها ، فهى شديدة الحياء ، إذا مشت لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها ، حتى ليظن من يراها أنها تبحث عن شىء ضاع منها ، وإن اعترضها شخص وكلمها ، أوجزت الحديث إيجازا ، ومضت لقصدها وغرضها ..

ثم كنى عن سمعتها الطيبة ، وسيرتها الحسنة على كل لسان بقوله : (لا يخزى نثاها حليلها) ، فحديثها العطر على كل لسان فى العشيرة يملأ زوجها زهوا وفخرا ، ويجعله سعيدا قرير العين ، لأنها مثال العفة والجلال ، (إذا ذكر النسوان عفت وجلت) ،

---

(٧) النسى بكسر النون : الشىء المفقود المنسى ، وتقصه : تتبعه وتتعقب أثره ، وأمها بتشديد الميم : قصدها الذى تريده ، وتبلت بفتح التاء واللام : تنقطع فى كلامها لا تطيله ، والنثا بفتح النون : الحديث عن الشخص والإخبار عنه حسنا أو سيئا ، يقال : نثا الحديث والخبر أى : حدث به وأشاعه ، والحليل : الزوج ، وآب : رجع ..

ثم كنى عن ملازمتها وقرارها فى البيت بقوله : (لم يسل أين ظلت) لأنها لا تبرح بيتها ولا تفـارقه .

وبهذا يتضح لنـا تسامى الشنفرى فى حديثه عن المـراة ، وترفعه عن الغـزل الفاحش الذى يكشف عن مفاتنها ، لقد سما بها وعلا إلى أعلى درجات العفـة والحسن وجمال الروح ، حتى قالوا : إن هـذه الأبيات أحسن ما قيـل فى خفر النسـاء وعفتهن ..

فلما أراد أن يتحدث عن جمالها الحسى أومـأ وأشـار ، ولم يهبط إلى إبراز مفـاتن المـــراة ، والكشف عن هـذا الجانب الحسى فيهـا ، ولننظـر فى البيت :

فـدقت وجـلت واسـبكرت وأكملت

فلو جـن إنسـان من الحسن جنت(٨)

فهو يريد : دق منها ما يستحسن دقتـه وعظم ما يستحسن عظمه ، والذى يحسن أن يكون دقيقا وضامرا هو الخصر والبطن ، والذى يحسن أن يكون عظيما ضخما : الروادف والثدى ..

وفى هـذا المعنى يقول الحماسى :

أبت الـروادف والثـدى لقمصـها

مس الظهـور وأن تمس بطـونا

وقال ابو تمـام :

من الهيف لو أن الخـلاخل صـيرت

لهـا وشحـا جـالت عليهـا الخلاخل

---

(٨) اسبكرت : طالت وامتدت ، ومعنى (جن) : ذهب عقله أو استتر واختفى ، ويريد بذلك بلوغها الغاية فى الحسن والجمال ..

ويقول كعب بن زهير :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة
لا يشتكى قصر منها ولا طول

ولكن الشنفرى أوما إلى ذلك ولم يوضح ، وأوجز الحديث عنه إيجازا (فدقلت وجلت واسكبرت واكملت) خلع عليها أسمى آيات الجمال الحسى دون أن يفصح عنه ، أو يبرزه فى صورة واضحة مكشوفة ..

ومعنى قوله : (لو جن إنسان من الحسن جنت) أنها بلغت الغاية فى الحسن والجمال ، ووصلت إلى حد ينبغى فيه الاستتار وإخفاء الحسن لكماله ، أو وصلت فيه إلى حد لو جن إنسان لوصوله إليه ، وذهب عقله لشدة حسنه لجنت ، وهذا يعنى بلوغها الغاية وحد الكمال فى الجمال والحسن ..

ثم يصور طيب رائحتها فيقول :

فبتنا كان البيت حجر فوقنا
بريحانة ريحت عشاء وطلت
بريحانة من بطن حَلْيَة نورت
لها أرج ما حولها غير مسنت(٩)

يشبه طيب رائحتها ويمثله بريحانة ، هذه الريحانة أصابتها ريح النسيم العليل عشاء ، واختار وقت العشاء لأنه أظهر لرائحة الرياحين ، كما أصابها الندى فاشتدت رائحتها ، وهى ريحانة من بطن حلية ، ذلك الوادى الذى يوجد فى حزن من الأرض ، ونبت الحزن

---

(٩) حجر فوقنا : أحيط وأغلق ، وريحت وطلت : أصابتها ريح النسيم العليل وأصابها الطل ، وحلية بفتح الحاء وسكون اللام : واد بتهامة وهو فى حزن : أى أرض مرتفعة ، ونبت الحزن أطيب ريحا من غيره ، والأرج : توهج الرائحة وانتشارها فى كل جانب ، والمسنت : المجدب ..

أطيب رائحـــة من غيره ، ثم هى ريحـانة قد نورت ، وصـار لها أرج انتشـــر فى كل جانب ، وما حولهـا من الأرض خصب وغير مجدب ، والبيت قد حجـر فوقهم ، وأحكم غلقـه ، فتضاعفت الرائحة وتركزت ، وقويت واشتدت ..

ويريد الشنفرى بهـذا التفصيل ، أن يكشف لنا عن طيب رائحـة أميمـة ، وأنها قد بلغت فى طيب الرائحـة مبلغـا عظيما ، لم تبلغـه غيرها ، وبهذا يكون قد جمـع لها كل صنوف الحسن ، وألوان الجمال ، فقد وصفها بالأخـلاق الرفيعة ، كالحيـاء والعفة والكرم والسيرة الطيبة ، وأطال فى بيان ذلك وأبدع فى تصـويره وتجليته ، ثم أشـار إلى جمالها الحسى ، وأنها قـد بلغت فى ذلك الغـاية ، فلو جن إنسـان من الحسن جنت ، واختتم حديثه بالإفاضة فى تصوير طيب رائحتها ..

والحمد لله أولا وآخـرا وصلى الله على سيدنا ونبينـا محمـد وعلى آلـه وصحبه وسلم . تم بحمد الله تعـالى فى يوم الأربعاء ، الثانى عشر من شهر جمادى الآخـرة سنة ١٤١٢ هـ ، الموافق الثـامن عشر من شهـر ديسمبر سنة ١٩٩١ م .

المـؤلف
بسـيونى عبد الفتاح فيود
الأستاذ المساعد في جامعة الأزهر

أهم المراجع

١ ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر : ط : دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢ هـ

٢ ـ الأصمعيات للأصمعى : ط : دار المعارف ـ ١٩٧٩ م .

٣ ـ الأم للإمام الشافعى ، ط : بولاق ـ ١٣٢١ هـ .

٤ ـ الإيضاح : للخطيب القزوينى ، ط : صبيح ، ١٣٩٢ هـ .

٥ ـ التصوير البيانى للدكتور محمد أبو موسى :
ط : دار التضامن ـ ١٩٨٠ م .

٦ ـ تفسير الطبرى لابن جرير الطبرى :
ط : دار المعارف ـ ١٩٦٩ م .

٧ ـ تفسير الفخر الرازى : للإمام محمد الرازى :
ط : دار الفكر ، ١٤٠١ هـ .

٨ ـ تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى :
ط : الحلبى ، ١٣٧٣ هـ .

٩ ـ الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا :
ط : منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٧٤ م .

١٠ ـ جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى :
ط : جامعة الإمام ، ١٤٠١ هـ .

١١ ـ خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى :
ط : دار التضامن ، ١٩٨٠ م .

١٢ ـ دراسات بلاغية للدكتور بسيونى فيود :
ط : السعادة ، ١٩٨٩ م .

١٣ ـ دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، ط : الفجالة ، ١٩٨٩ م .

١٤ ـ دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى :
ط : دار المعلم ، ١٣٩٩ هـ .

١٥ ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان :
ط : الريان ، ١٤٠٧ هـ .

١٦ ـ روح المعانى للآلوسى :
ط : دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .

١٧ ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى : ط : الخانجى .

١٨ - **شرح أشعار الهذليين للسكرى** : ط : المدنى .
١٩ - **شـروح التلخيص** .
٢٠ - **صحيح مسلم بشرح الإمام النووى** :
ط : دار الكتب العلمية - بيروت .
٢١ - **الصناعتين لأبى هلال العسكرى** : ط : الحلبى ، ١٩٧١ م .
٢٢ - **الطراز للعلوى** ، ط : المقتطف ، ١٣٣٢ هـ .
٢٣ - **علم البيان للدكتور بدوى طبانة** ، ط : المطبعة الفنية ، ١٩٧٧ م .
٢٤ - **علم البيان للدكتور بسيونى فيود** : ط : السعادة ، ١٩٨٨ م .
٢٥ - **علم المعانى للدكتور بسيونى فيود** : ط : السعادة ، ١٩٨٧ م .
٢٦ - **علم البديع للدكتور بسيونى فيود** : ط : السعادة ، ١٩٨٧ م .
٢٧ - **فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى**
٢٨ - **الكشاف للزمخشرى** ، ط : الحلبى ، ١٣٩٨ هـ .
٢٩ - **لسان العرب لابن منظور** ، ط : دار المعارف .
٣٠ - **المثـل السائر لابن الأثير** : ط : الحلبى .
٣١ - **مجاز القـرآن لأبى عبيدة** ، ط : الخانجى .
٣٢ - **المجازات النبوية للشريف الرضى** : ط : الحلبى ، ١٣٥٦ هـ .
٣٣ - **معانى القرآن للفراء** ، ط : الهيئة المصرية ، ١٩٨٠ م .
٣٤ - **المطول : لسعد الدين التفتازانى** .
٣٥ - **مغنى اللبيب لابن هشـام** : ط : المدنى .
٣٦ - **مفتاح العلوم للسكاكى** : ط : الحلبى ، ١٣٥٦ هـ .
٣٧ - **المفضليات للضبى** : ط : دار المعارف .
٣٨ - **الموطأ لابن مالك** : ط : الحلبى ، ١٣٧٠ هـ .
٣٩ - **الموازنة للآمدى** : ط : دار المعارف ، ١٣٨٠ هـ .
٤٠ - **النبـأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز** :
ط : السعـادة ، ١٣٨٩ هـ .
٤١ - **نهـاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى** :
ط : الآداب ، ١٣١٧ هـ .
٤٢ - **الوسـاطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى** :
ط : الحلبى .

محتويات الكتاب

كتب للمؤلف

١ ـ من هدى القرآن الكريم

تفسير بلاغى لسورة (المؤمنون)

٢ ـ علم المعانى الجزء الأول

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى

٣ ـ علم المعانى الجزء الثانى

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى

٤ ـ علم البيان

دراسة تحليلية لمسائل البيان

٥ ـ علم البديع الجزء الأول

دراسة تاريخية لأصول البلاغة

٦ ـ علم البديع الجزء الثانى

دراسة فنية لمسائل البديع

٧ ـ دراسات بلاغية

بحوث بلاغية متنوعة

٨ ـ بلاغة تطبيقية

دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٩١ / ٩٢٤٨